حالات نادرة (6)

قصص غريبة من مستشفى الطب النفسي



م.عبدالوهاب السيد الرفاعي

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

حالات نادرة 6

العنوان

حالات نادرة 6

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

مكتبة
t.me/t_pdf

ردمك:

978-9921-737-34-9

رقم الإيداع: 2021/0562

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع



مكتبة | 785
سُر مَن قرأ

حالات نادرة 6

قصص غريبة من مستشفى الطب النفسي

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي





تنويــه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

الفهرس

مقدمة

عام 2020.. حقاً إنّ السنوات تجري كالبرق.. كانت هذه السنة رقماً بعيداً للغاية في مخيلتي.. لكنها اليوم واقعاً أعيشه سيتحول إلى ماضٍ عند قراءتك لهذه السطور.. لذلك أنصحك باستثمار سنوات عمرك فيما يغير حياتك وحياة من حولك إلى الأفضل.

عموماً.. لا شك أنّ هذه السنة تختلف.. إنها المرة الأولى التي يواجه فيها العالم مصيبة واحدة.. أو فلنقل جائحة واحدة.. بعد جائحة (الأنفلونزا الإسبانية) التي حصدت الملايين من البشر منذ أكثر من 100 عام*.

---

* حقيقة بالطبع.. وقد انتشرت تلك الجائحة في نهايات الحرب العالمية الأولى.. وتحديداً في فبراير من عام 1918.. حيث استمرت لغاية ابريل من عام 1920.. وتميّز حينها فيروس (الأنفلونزا الإسبانية) بسرعة انتشاره الرهيبة.. حتى ذكرت الإحصائيات أن حوالي نصف مليار شخص أصيبوا بالعدوى وظهرت عليهم علاماتها.. وبين هؤلاء توفي أكثر من 50 مليون شخص.. أي حوالي ضعف ضحايا الحرب العالمية الأولى.. علماً بأن الغالبية العظمى من ضحايا (الأنفلونزا الإسبانية) كانوا من اليافعين الأصحاء بعكس ما يحصل عادةً حين تستهدف الفيروسات كبار السن والأطفال وضعيفي المناعة.. والسبب يعود إلى بروتين (سايتوكاين) (Cytokine) المسؤول عن عمليات نقل الإشارات والتواصل بين الخلايا.. حيث يتسبب الفيروس باختلال عمل هذا البروتين ليتسبب بتدفق الخلايا المناعية إلى الرئتين ومهاجمتهما بدلاً من أن توفر لهما الحماية.. وقد قامت حكومات بعض الدول الكبرى آنذاك=

والواقع أنني لا أعرف كيف كان وقع السنة عليكم.. لكن بالنسبة لي.. كانت كل ما أحلم به بعيداً عن أمنياتي للجميع أن يكونوا بخير وعافية.. إذ لم تتجاوز حياتي الذهاب إلى عملي في المستشفى.. والعودة إلى شقَّتي من دون التزامات من أي نوع.. بعد أن توقفت تلك الاتصالات والرسائل المزعجة من أشقائي لتلبية دعوة حفل زفاف فلان.. أو تقديم واجب العزاء لعلان.. خاصةً وأنني أرى المناسبات الاجتماعية هذه عبارة عن ضرب تحت الحزام وكلها انتقادات وعتاب.. علناً أو تحت الطاولة.. لذا شعرت بحرية مطلقة برغم السجن الإجباري الذي عشناه جميعاً.. فالسفر ممنوع إلا لأسباب ضرورية.. وهناك حظر تجول جزئي تحول إلى حظر كامل لفترة من الوقت.

=مثل (ألمانيا) و(بريطانيا) و(فرنسا) و(الولايات المتحدة الأمريكية) بفرض رقابة على الصحف لتقليص نشر أخبار الوباء منعاً لترويع الناس.. على عكس الصحف الإسبانية التي امتلكت حرية مطلقة بنشر كل ما يتعلق بالأمر.. مما أعطى انطباعاً خاطئاً بأنّ مصدر الوباء (إسبانيا).. ولهذا أطلقوا عليه اسم (الأنفلونزا الإسبانية).. وقد أشارت بعض التقارير أن سبب الارتفاع المخيف في معدل الوفيات كان يعود لوجود عوامل مساعدة على انتشار الفيروس وتعزيز قوته.. مثل سوء التغذية التي تلت الحرب العالمية الأولى والمخيمات الطبية المكتظة وضعف النظافة العامة آنذاك.. أما بخصوص منشأ الفيروس فهو غير مؤكد حتى الآن.. وليس (الصين) بصورة قطعية كما يشاع.. وأخيراً وليس آخراً.. يجب أن نشير إلى الفارق بين مصطلح (وباء) و(جائحة).. فمصطلح (وباء) يشير إلى ظهور أمراض معدية في دولة أو مجموعة دول صغيرة متجاورة.. في حين يطلق مصطلح (جائحة) إذا ظهرت الأمراض المعدية في بقعة جغرافية أكبر بكثير.

فكانت هذه العزلة التامة التي فرضتها علينا الأنظمة الصحية أفضل بكثير بالنسبة لي من العزلة الاختيارية التي يتطفل فيها الجميع على حياتي ويريدون إخراجي منها عنوة.. هكذا أنا.. دائماً العزلة بالنسبة لي قضية مصيرية.. فحتى أثناء سفري.. تجدني في الطائرة ألجأ دوماً إلى المقعد الملاصق للنافذة كي أشعر بالانفصال عن كل المسافرين.

كما أن عام 2020 لم يحمل الكثير من المفاجآت على صعيد عملي في مستشفى الطب النفسي.. فكانت كل الحالات التي تمر عليّ من الاضطرابات النفسية المعتادة التي لن تثير اهتمام أحد.. حتى بدا عاماً خاملاً للغاية كاد أن يتحول إلى بنج عام.. لذا وجدت من الضرورة أن أستغل هذه العزلة في مراجعة ذاتي وتصحيح بعض الأمور في حياتي.. إذ عاهدت نفسي أن أغير بعضاً من طباعي.. أن أصمت أكثر مثلاً.. ولا أبادر بالسؤال أو أبرر لغيابي.. وألاّ أشكو للناس.. إلخ.. مع منح عقلي جرعات ضخمة من الثقافة والفائدة.. أتحدث هنا عن القراءة ومشاهدة الأفلام الوثائقية.

وبسبب وجودي المستمر في شقتي وعدم خروجي إطلاقاً.. تغيرت حياتي أكثر عما كانت عليه.. ففي السابق كنت (بيتوتي)..

وهي اللفظة التي نستخدمها لمن يقضي جل وقته في البيت.. لكني أصبحت (غرفوفي) كوني لم أعد أخرج من غرفتي نفسها إلا للضرورة.. قبل أن أتحول في فترات الحظر إلى (فرشوشي) لأنني ظللت أقضي أوقاتاً طويلة في فراشي.

إلا أنني أُصِبتُ أخيراً بشيء من الملل بسبب هذا الروتين اليومي.. حينها فقط قررت أن أمسك القلم بعد أن شعرت بالاشتياق للكتابة وتفريغ بعض ذكرياتي على الورق وسط ظلام الغرفة وعلى ضوء شمعة فحسب.. وكأنني في القرون الوسطى حين كانت الطرقات تخلو تماماً من الناس في الأوقات المتأخرة.. ويقضي الفلاسفة أوقاتهم في البحث والاطلاع.. ولا أعني بذلك أنني أحد هؤلاء الفلاسفة بالطبع.

وبما أنني أمسكت القلم.. فكان أول ما خطر ببالي أن أكتب الجزء السادس من مذكراتي.. يااااه .. هل حقاً وصلنا إلى الجزء السادس؟!.. هذا مذهل!.. ولكن رغم ذلك.. ورغم تلك العِشرة التي تكوّنت بيننا.. ما زلت أجد نفسي مضطراً للتحدث عن شخصي المتواضع قليلاً من باب التذكير.. ولأنّ هناك من لم يقرؤوا أياً من الأجزاء السابقة وقرروا البدء من هذا الجزء مباشرة.. على كل حال.. لن يكون هناك الكثير ليقال.. كل

ما يهمك معرفته أنني طبيب نفسي.. أعزب.. في الأربعينيات من العمر.. قصير القامة نسبياً.. نحيل الجسد نسبياً أيضاً.. أضع أحياناً نظارة لا أحتاجها.. فقط على سبيل الوقار.. كون ارتداء النظارة الطبية له رمزية ثقافية تجعلني أشعر بثقة أكبر بنفسي حين أضعها.. كما أنني لم أذكر اسمي أبداً للقراء الأعزاء.. ربما لأنني اعتدت لقب (دكتور) الذي يناديني به الجميع.. حتى أفراد العائلة أنفسهم.

ولأن أفراد العائلة لا يسمحون لي بالتدخل في (شؤوني) -لا يوجد أي خطأ في العبارة السابقة- ولأن الضجيج في عقلي لا يطاق رغم أنني أبدو هادئاً أمام الجميع.. فقد اخترت الانتقال لأعيش وحيداً في شقة أنيقة في منطقة (الشامية) بعيداً عن بيت العائلة المزدحم الذي كنت أشعر فيه بالاختناق بسبب تدخل الجميع في حياة الجميع.. ناهيكَ عن المجاملات المستمرة والاضطرار أحياناً كثيرة إلى تنظيم الولائم والمناسبات الاجتماعية التي تلتهم وقتك.

والواقع أنني أشعر بالاختلاف عن أفراد عائلتي منذ زمن.. مما جعلني في البداية أقوم بهجرة فكرية وإلكترونية إن صح التعبير.. حين وجدت أن نقاشاتي معهم حول بعض التقاليد

البالية تستهلك 99% من طاقتي.. فأتحدث معهم عن الاكتئاب وأنه مرض خطير يدمر حياة الإنسان تدريجياً.. ليتحدثوا بالمقابل عن التدين وأنه العلاج الأمثل.. لأنفعل وأخبرهم أن علاج الاضطرابات النفسية من خلال التدين سيساهم في انحرافات خطيرة في سلوكيات الإنسان.. مثل التعصب الأعمى والخوف المرضي من الرذيلة والمبالغة في التحريم.. إلا أن نقاشات كتلك لا تصل فيها عادة إلى نتيجة.. وهذا ما جعلني أقرر أن أهاجر جغرافياً -أو لنقل مناطقيّاً كوني أعيش في بلد صغير المساحة- وأتركهم دون أن أنسى زيارة والدتي مرة أو مرتين أسبوعياً.

أما سبب عدم زواجي حتى الآن فالأسباب كثيرة ذكرتها في أجزاء سابقة.. لكن.. لنختزل الأسباب كلها في أن قلبي لم يخفق بعد تجاه تلك الفتاة التي تجعلني أغمض عيني وأصيح في قرارة نفسي:

- إنها هي أخيراً.. آمل أن تقبل بي.

قد يبدو هذا غريباً بالنسبة لطبيب نفسي قابلَ عشرات الفتيات في نطاق عمله وخارجه.. إلا أنني لا أجد تفسيراً لعدم وقوعي في الحب حتى الآن سوى موضوع القسمة والنصيب.. وربما

يجب ألا ألوم نفسي على تأخري في الزواج.. فالزوجة شريكة حياة كما نطلق عليها دوماً.. أي أنها ستعرف عني كل صغيرة وكبيرة.. وكل نقاط ضعفي وقوتي.. حتى بصمة رائحتي.. وهذا يخيفني كثيراً.. كما أنني أخشى التعامل مع الأنثى.. فهي كائن شديد الحساسية.. شفاف بالقدر الذي لا تقتله الكلمة الجارحة فقط.. بل يقتله أيضاً غياب الكلمة الدافئة.

لهذا أجد نفسي حريصاً جداً على اختيار الزوجة المناسبة.. حريصاً إلى درجة أن قطار الزواج نفسه اقترب من الرحيل عني إلى الأبد.. بعد أن أصبحت أخشى فكرة تكوين أسرة، وأنا أرى مفهوم الأسرة يفقد قيمته في المجتمع يوماً بعد يوم مع كل أسف.. لكن هذا لم يعد يهمني كثيراً.. فسن الخمسين الذي أتجه إليه.. ليس سن الكهولة كما قد يظن البعض.. إنما هو سن الشباب والعقلانية والهدوء الداخلي وحب الحياة وقلة الحديث وكثرة الإنصات.

ولو اطّلعتَ على الأجزاء السابقة.. فستدرك أنني كنت أخصصها للجنس اللطيف.. حيث شرحت الأسباب أكثر من مرة.. أهمها ضغوطات المجتمع الكبيرة على الأنثى.. وقيود العائلة التي قد تدمر مستقبلها أحياناً.. على عكس الشاب الذي يعيش حياته

بطولها وعرضها دون قيود.. وهذه الضغوط تنحت حالة الفتاة النفسية نحتاً بطبيعة الحال.. خاصة حين ترتبط بشاب يحمل نفس العقلية التي تحملها عائلتها.. فيطبق عليها نفس قائمة الممنوعات الطويلة.. ويبيح هو لنفسه ما يريد.

لكن.. هذا لا يعني أن كل من يزورني في المستشفى من الجنس اللطيف فقط.. فهناك من الذكور أيضاً من مروا بتجارب قاسية أثرت كثيراً على حياتهم.. وباتوا يرغبون في البوح عمّا في داخلهم بحثاً عن مساعدة.. بعد أن تحملوا ضغوطات معينة لفترة طويلة وهم صامتون.. إمّا خوفاً من إظهار مشاعرهم السلبية كونهم رجالاً عليهم أن يبدوا أقوياء دوماً.. أو خوفاً من ردود أفعال من هم حولهم.. وهذا ما جعلني أقرر الحديث عن مشاكلهم أيضاً ابتداء من هذا الجزء.. وأتساءل في نفس الوقت عن حال المرضى النفسيين في الأزمان القديمة قبل اكتشاف هذا الفرع من الطب.. وأتساءل أيضاً عن الأوهام والنصائح المزيفة التي بعثرت حياتهم.. والأكاذيب التي قيلت لهم وما بذلوه من جهد ومال من أجلها ثم اكتشفوا أن لا فائدة منها.. حقاً إنّ الأرض حبة رمل.. بينما الألم الذي يخرج منها يعادل الكون بأكمله!!.

وبسبب عملي الذي جعلني أرى أقبح ما يمكن أن تراه في الإنسان.. فقد تأثرت كثيراً بالقصص الغريبة التي أنشرها لكم بين الحين والآخر.. مما أصابني بحالة اكتئاب شديدة.. حتى صرت كالعلم الممزق الذي يخترق الهواء ثقوبه.. لكنه ما زال يرفرف بكبرياء.. هكذا أنا.. ولذلك بدأت أتناول الأدوية المضادة للاكتئاب ومثبتات المزاج.

ورغم أنني أكتب بعمق.. إلا أن الكثيرين لا يعرفون كم هو معتم هذا العمق!!.. وأن العودة إلى السطح باتت مستحيلة بالنسبة لي.. لكن تبقى الكتابة وسيلة فعالة أيضاً للعلاج النفسي -إلى جانب تناول الأدوية- وهذا ما أنصح به كل مصاب بالاكتئاب.. أن يكتب مشاعره وذكرياته باستمرار ويفرغ على الورق ما بجعبته من ألم.. وأن يطمح دوماً إلى تطوير ذاته وتغيير حياته إلى الأفضل.. فتحقيق النجاحات في حياتنا أفضل علاج للأمراض النفسية.. ويا حبذا لو مارسنا الرياضة أيضاً.

ولأن عام 2020 لم يحدث فيه ما يستحق الذكر بالنسبة لعملي كطبيب نفسي.. فإن معظم القصص التي ستقرؤونها في هذا الجزء حدثت في عام 2019.. هل القصص غريبة؟!..

لا شك أنها كذلك.. بالنسبة لي على الأقل.. وإلا لم يكن الكتاب بعنوان (حالات نادرة).. كوني أتحدث فيه عن أغرب القصص التي مررتُ بها أثناء عملي في مستشفى الطب النفسي.. عموماً.. لن أستطرد أكثر.. ولندخل معاً أجواء المستشفى ونعيش أحداثاً جديدة من خلال مجموعة من القصص كنت أنا محورها الأساسي والرابط بينها بطبيعة الحال.

إنها قصص تقشعرّ لها الأبدان خوفاً واستغراباً.. وتجعلك تتساءل بلا توقف عن أسرار البيوت.. وما قد يخفيه عنك الآخرون من مشاكل وآلام.. وحالات صعبة تطلبت زيارتي في المستشفى طلباً للمساعدة.. إنها: حالات نادرة.

الدكتور (.......)

العابر

تحكيها: (سديم)

عزيزي القارئ..

لو كنت قد قرأت الأجزاء السابقة.. فستعلم أنني أطلب أحياناً من المرضى كتابة قصصهم كنوع من الفضفضة.. خاصة وأن الورق لن يكذبك أبداً.. فتستطيع كتابة ما يمليه عليك عقلك ومشاعرك مهما كانت غرابة ما ستكتب.. وهذا ما جعلني أطلب من (سديم) كتابة قصتها بالكامل دون تدخل مني، إلا من أجل الصياغة اللغوية فحسب.

هل القصة حقيقية؟!.. ما زلت عاجزاً عن الإجابة على هذا السؤال.. لأن الأمر سيبدأ بحادثة بسيطة قد لا تثير الاهتمام.. إلا أنها ستكبر بتسارع غريب لتصبح كالبئر العميقة التي تمتلئ بالألغاز لتبتلع أبطال القصة أنفسهم.. حتى نصل إلى نهاية صادمة تجيب عن كل شيء.. لكنها تطرح المزيد من التساؤلات في نفس الوقت!!.

سأترككم الآن لقراءة القصة بكل تفاصيلها.. ومن ثم الحكم عليها بأنفسكم.. على أن أعود بعد ذلك لأعلق على أحداثها كما أفعل دوماً.

مجنونة.. هذا ما قاله أو ظنَّه كل من استمعَ إلى قصتي.. فمجرد الحديث عن الأمر سيجعل كل إنسان يشك في سلامة عقلي.. لكن لم يعد يهمني رأي الناس.. حتى وإن أدى ذلك إلى وجودي في هذا المكان.. مستشفى الطب النفسي.. نعم.. إنني نزيلة المستشفى الآن.. ولا أشعر بالضيق من ذلك.. بل قد يكون هذا هو الحل الأنسب حالياً.. كي أحمي نفسي ممن يرغبون في التخلص مني.. فالشرطة نفسها تعجز عن حمايتي.. خاصة وأنهم لا يصدقونني بدورهم ولا يعترفون بسلامة عقلي.

لقد تحولت من فتاة بسيطة تعيش حياة طبيعية.. إلى أخرى يراها الجميع مجنونة لا تملك عقلها.. كل هذا في غضون أيام قليلة تسارعت فيها الأحداث وتغيرت خلالها حياتي بأكملها.. مما جعلني أخسر كل شيء سوى عقلي الذي ما زلت مصرة على أنني لم أفقده بعد.

لقد بدأ الأمر في تلك الليلة الممطرة من عطلة نهاية الأسبوع.. حين كنت في السيارة مع زوجي وابنتي التي لا يتجاوز عمرها 7 أعوام.. وقد خرجنا للتو من بيت أحد الأقارب في مدينة (الأحمدي).. حيث دعانا إلى العشاء بسبب الترقية التي حصل عليها في وظيفته في إحدى شركات النفط.

كان زوجي شديد الحذر في قيادته وسط الشوارع الرئيسية المبتلة.. قبل أن يظهر أمامنا فجأة ذلك الرجل الغامض الذي لا نعرف من أين أتى بالضبط.. لكنني لمحته سريعاً وهو يرتدي معطفاً مطَرياً مع غطاء للرأس حجب ملامحه وسط هذا الظلام.. أتذكر شهقتي ومحاولة تحكم زوجي السريعة في مقود السيارة كي يتفادى الاصطدام.. ولا أدري في الواقع إن كان قد نجح في ذلك.. فقد جرت الأحداث بسرعة رهيبة كما هو الحال مع مواقف كهذه.. وبسبب الأمطار الغزيرة التي بللت الشوارع تماماً.. انحرفت السيارة بسبب هذه الحركة المفاجئة.. وانقلبت بعنف.

وبالطبع فإن حادثاً كهذا لن يمر مرور الكرام.. إذ تعرض رأسي لاصطدام عنيف بزجاج النافذة الجانبية رغم ربطي لحزام الأمان.. إلا أنني لم أفقد الوعي.. ربما هي الأمومة التي جعلتني أتجاوز كل هذا، وألتفت إلى المقعد الخلفي نحو ابنتي التي كانت أيضاً تربط حزام الأمان وتبكي بذعر وهي تطلب منا مساعدتها.. لكنها لم تكن في محيط بصري للأسف بسبب وضع السيارة المقلوب.

أما زوجي.. فقد رأيت وجهه ممتلئاً بالدماء وهو يبعدها عن عينيه كي يتمكن من النظر إلينا ليسألنا بصوت خافت إن كنا بخير.. ثم رأيته يحاول الخروج من نافذة السيارة بصعوبة إلى أن نجح في ذلك وسط صمتي التام وبكاء ابنتي، وصوت الأمطار الذي أعطى كل هذا مشهداً درامياً مهيباً.. وحين شعرتُ -ببعض الاطمئنان- أنهما على قيد الحياة.. استسلمت لآلام رأسي.. وفقدت الوعي أخيراً.

استيقظت بعد الحادث بساعات قليلة، وقبل شروق شمس اليوم التالي كما علمتُ فيما بعد.. حيث وجدت نفسي في المستشفى وإحدى الممرضات تقف أمامي مبتسمة لتخبرني أن رأسي تعرض لضربة قوية لكنها ليست خطيرة.. كما أنّ هناك جرحاً سطحياً بسيطاً في جبهتي قام الطبيب بتضميده.. مع بعض الرضوض التي ستشفى قريباً.. وأنني بخير حالياً وبإمكاني الخروج لو أردت.

شعرت براحة لم تستغرق إلا ثواني قليلة.. قبل أن أستوعب ما مررنا به.. فسألتُ الممرضة بذعر عن ابنتي.. لتخبرني بذات الصوت الهادئ المطمئن أن ابنتي بخير ولم تتعرض لأي أذى لحسن الحظ.. وهي تجلس الآن في الخارج.. لكن جوابها

لم يكن كافياً بالنسبة لأي أم.. مما جعلني أنهض من مكاني سريعاً وسط تحذيرات الممرضة التي تجاهلتها تماماً.. لأتجه إلى خارج الغرفة وأبحث بخطوات متعثرة في كل مكان.. إلى أن وجدت ابنتي بالفعل في الاستراحة وبجانبها أحد الممرضين من الجنسية الآسيوية والذي كان يتحدث إليها بطريقة أبوية كي يشعرها بالأمان.. وما أن رأتني.. حتى ركضت تجاهي واحتضنتني بقوة زادت معها آلام رأسي وجسدي.

لكني لم أهتم.. بل أمسكت برأسها وكأنني أحتويها في محيط بصري بأكمله.. لأسألها مباشرة إن كانت بخير.. فهزت رأسها إيجاباً وهي تنظر بقلق إلى الجروح السطحية التي غطت وجهي.. في حين اقترب مني الممرض كي يؤكد لي أن الأمور على ما يرام.. وأن ابنتي لم تصب بأذى.. لأنظر إليه وأسأله بقلق عن زوجي.. فابتسم مشجِّعاً وهو يؤكد أن زوجي بخير أيضاً.. إلا أنه تعرض لإصابات أكثر، رغم أنها ليست خطيرة لحسن الحظ.. وإن كان علاجها سيتطلب بعض الوقت.. كما أشار الممرض إلى أنّ محقق المستشفى ينتظر استيقاظي ليوجه إليّ بعض الأسئلة.

أغمضت عيني لأطرد انفعالاتي بعد هذه الساعات العصيبة.. ثم طلبت من الممرض أن يسمح لي بالاطمئنان على زوجي أولاً..

فهز رأسه متفهماً وهو يخبرني برقم الغرفة.. حيث نهضت وأنا أمسك بيد ابنتي لنسير معاً عبر الممرات متجهين إلى غرفته.. و.. لم يكن زوجي في أفضل حال بالفعل.. فإصاباته كثيرة.. والضماد يلف رأسه.. دعكم من بعض الكسور والرضوض هنا وهناك.. إلا أنني كنت مطمئنة كونه سيشفى في غضون أسابيع.. خاصة بعد أن رأيت ابتسامته المنهكة وكأنه يعدني أن حالته ستتحسن مع مرور الوقت.. وبعد أن تحدثت مع الطبيب بنفسي وأخبرني أن زوجي سيكون بخير بالفعل.

جلسنا معاً بعض الوقت نتحدث عن إصاباتنا.. قبل أن يدخل أحدهم غرفة زوجي.. وإذ به محقق المستشفى الذي اعتذر لإزعاجنا.. وتمنى لنا جميعاً الشفاء العاجل.. ثم طلب منا باحترام أن نجيب على أسئلته.. فهي فرصة جيدة -على حد قوله- كي يحقق معنا في نفس الوقت ليفهم ملابسات الحادث جيِّداً.. في حين جلست ابنتي في أبعد مقاعد الغرفة بعد أن أخذت هاتفي الذكي لتنشغل به قتلاً للوقت.

راح المحقق بعد ذلك يتحدث عن السيارة، ويخبرنا أنها تحطمت وبات إصلاحها مستحيلاً تقريباً.. ثم غيَّر دفة الحديث.. ليسأل زوجي عما حدث من دون إهمال أي تفاصيل.. فأجابه زوجي

ووصف الحادث بكل دقة.. ليتجه المحقق إلى النقطة الأهم:

- يبدو من كلامك يا سيدي وكأن عابر الطريق هذا تعمد الوقوف أمام السيارة.. ربما تكون محاولة انتحار.

رد زوجي بصوته الهامس المرهَق:

- وهل يعقل أن يقدم على الانتحار ويعرّض حياة الناس للخطر أيضاً؟!.

قال المحقق ببساطة وكأنه اعتاد حوادث كهذه:

- من يدري؟!.. أحياناً يصل الإنسان إلى مرحلة من اليأس تدفعه إلى الانتحار بعيداً عن التفكير بمصير الآخرين.. على كل حال.. لو كان انتحاراً فقد تحقق بنجاح.

نظرنا إليه دون فهم.. ليقول مبتسماً:

- لقد عثرنا على عابر الطريق هذا.. كان مصاباً مرمياً على الرصيف بفعل الاصطدام وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.. وقد حاول المسعفون إنقاذه والإبقاء على حياته.. إلا أنه توفي في سيارة الإسعاف متأثراً بإصاباته وقبل الوصول إلى المستشفى بدقائق.

سكتنا طويلاً من رهبة الموقف.. وشرد كلٌّ منا في أفكاره.. ثم سأله زوجي بشيء من القلق:

- هل سأتحمل مسؤولية موته؟!.. لقد حاولت تفاديه كما ذكرت لك.. بل وعرضت حياتي وحياة أسرتي للخطر بسببه.

رد المحقق بهدوء:

- القضاء هو الذي سيحسم الأمر وليس أنا.. غالباً ما تنتهي تلك القضايا بغرامة مالية يحددها القاضي.. إلا إذا كان لأهل الضحية رأي آخر.. لكن.. هناك مشكلة أخرى أكبر من الحادث نفسه.. فالشرطة لم تعثر على ما يثبت هوية عابر الطريق بعد.. فلا محفظة.. ولا أية أوراق رسمية.. حتى بصمته ليست موجودة في السجلات الرسمية.. لذا.. سأطلب منكما شيئاً بصورة ودية.. إذ لا يحق لي هذا الطلب من الناحية القانونية.

نظرنا إليه مستفهمين.. ليقول باهتمام:

- هل بإمكانكما الذهاب معي إلى ثلاجة المستشفى للاطلاع على جثة عابر الطريق؟!.. ربما تتعرّفان هويته.

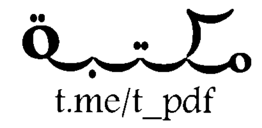
قالها وهو يطلب مني برجاء أن أفعل ذلك.. على أن يفعل زوجي الأمر ذاته غداً بعد أن تتحسن حالته قليلاً.. بالطبع لم أرتح لهذا الطلب.. واعتذرت خوفاً وأنا أهز رأسي نفياً بقوة أن لا يمكنني أبداً الاقتراب من أية جثة.. فراح المحقق يحاول إقناعي أن المسألة هامّة.. وأن هذا قد يكون الأمل الأخير لمعرفة هويته.

في النهاية.. وافقت على مضض.. وتركت طفلتي مع زوجي.. لأذهب مع المحقق إلى حيث يحتفظون بالجثة.. آمل أنها الخطوة النهائية قبل إغلاق ملف الحادث إلى الأبد من ناحيتنا على الأقل.. هذا ما ظللت أردده لنفسي إلى أن دخلنا تلك الغرفة، حيث يوجد أحد الممرضين وكأنه بانتظارنا.. ليرحب بنا ويتجه إلى ثلاجة معينة كي يفتحها لأرى وجه عابر الطريق لأول مرة.

حسناً.. كنت أتوقع أن أجد أي رجل في العالم سوى ذلك الرجل.. حتى إنني شهقت بردة فعل عفوية تجاه ما رأيت!.. فظن المحقق والطبيب أن هذا من فعل مشاهدتي للجثة.. لكن الواقع أن الأمر أكبر بكثير.. فالجثة كانت لزوجي نفسه!!!.. نعم.. زوجي الذي يفترض أن يكون بخير وهو يجلس مع

طفلتي حالياً.. كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا؟!.. لا تبدو آثار المفاجأة على الطبيب أو المحقق إطلاقاً.. هل يعقل أنني فقط من لاحظت هذا الشبه الذي يصل إلى حد التطابق التام؟!.. هل من الممكن أنّ هذا شقيق زوجي التوءم مثلاً.. لا أظن.. فلا يوجد أي توءم لزوجي على حد علمي.. إذاً كيف؟!.. كيف يوجد زوجي في مكانين بنفس الوقت؟!.

ظللت مصدومة لا أعرف ما أقول وأنا أحدق بالجثة.. الفارق الوحيد أن هناك ندبة لجرح قطعي قديم على الكتف.. فكتف زوجي لا يحوي ندبة كهذه بكل تأكيد.. إنه فارق تافه عموماً ولا يعني الكثير قياساً للشبه المذهل بينهما!.. عقلي يعمل بسرعة ويطرح التساؤلات بلا توقف.. في حين يسألني المحقق بلهفة -بعد أن رأى توتري- إن كنت عرفت هوية صاحب الجثة.. لكني هززت رأسي نفياً وكررت له بحزم أنني لم أرَ هذا الرجل من قبل.. فقد قررت -ولسبب أنا نفسي لا أعرفه- ألا أشير إلى هذا التشابه المذهل بين زوجي والعابر.. ليسمح لي المحقق بالخروج بشيء من خيبة الأمل.



خرجت من ثلاجة المستشفى.. واتصلت بشقيقي لأخبره بأمر الحادث.. حيث كان قد استيقظ للتو لحسن الحظ.. ليهرع مسرعاً إلى المستشفى كي يطمئن علينا، ومن ثم يأخذني مع ابنتي إلى شقتنا.. أما زوجي فسيتعين عليه البقاء ليومين آخرين كما أوصى الطبيب.. دعكم من الزوبعة العائلية التي حدثت بعد ذلك.. والاتصالات التي انهالت من أقاربي طوال الساعات التالية.. لكني طمأنتهم أننا جميعاً بخير.

مر اليومان التاليان بلا أحداث تذكر.. إلا أن ذهني ظل مشغولاً بهوية عابر الطريق هذا.. خاصة حين أخبرني زوجي هاتفياً أنه ذهب بدوره مع المحقق كي يرى الجثة.. لكنه لم يتعرف هوية صاحبها.. إذ قالها من دون الإشارة إطلاقاً إلى التشابه التام بينهما.. حتى شعرت بذعر وارتباك كبيرين جعلاني أصر على الاحتفاظ بأفكاري لنفسي مؤقتاً لحين أفهم ما يدور حولي.. ففي البداية ظننت أن المستشفى يمتلئ بالحالات المرضية وبمصابي الحوادث والجثث.. ولأن الجروح على وجه زوجي كانت كثيرة أيضاً.. فربما لم ينتبه أحد لوجه التشابه بينه وبين عابر الطريق!!.. لكن ماذا بعد أن رأى زوجي الجثة بنفسه ولم يُبد أي استغراب؟!.. هل هي إصابة رأسي التي تسببت بخلل

في دماغي جعلني أعجز عن رؤية الأشياء على حقيقتها؟!.. هذا التفسير سيبدو عقلانياً في بادئ الأمر.. إلا أنه سينهار أمام المنطق البديهي بأنني أرى كل شيء آخر بصورة طبيعية.

لم تتوقف التساؤلات في رأسي لحظة واحدة.. حتى مع عودة زوجي إلى البيت وعودة الاستقرار لأسرتنا الصغيرة بعد الهزة العنيفة التي تعرضنا لها.. لذا قررت حسم الأمور والذهاب إلى المستشفى في اليوم التالي للمزيد من الاطمئنان على صحتي وسلامة رأسي.. وسيكون لكل حادث حديث.. من دون أن أعلم أن حياتي ستنهار قريباً.. وبسرعة لا تصدق!!.

استيقظت باكراً صباح اليوم الرابع من الحادث.. فارتديت ثيابي سريعاً وخرجت إلى المستشفى معللة الأمر لزوجي أنني أشعر ببعض الآلام في رأسي، وأريد الاطمئنان على نفسي أكثر بعد الحادث.. ولا أفهم لماذا لم أشعر بالراحة لوجود ابنتي معه في شقتنا.. هل هو إحساس الأم بالخطر على طفلتها؟!.. لا أعلم.. لذا أخذتها إلى بيت والديّ مدعية أن والدتي تريد أن تراها بعد الحادث.. خاصة وأننا في إجازة نصف السنة الدراسية.

المهم أنني ذهبت إلى المستشفى حيث ركنت سيارتي بشيء من الإهمال.. لأدخل عبر البوابة الرئيسية وأعبر قاعة الاستقبال

وبعد ذلك الممرات، حيث تمكنت من لقاء الطبيب بعد وقت ليس بالقصير من الانتظار.. ثم أخبرته أنني غير مطمئنة على إصابات رأسي وأرغب في المزيد من الفحوصات.. مما أثار استغرابه.. ليسألني مبتسماً إن كنت أشعر بأي ألم.. فهززت رأسي نفياً.. وادّعيت أن الأمر لا يتجاوز الوسواس ربما.. ليهز رأسه متفهماً.. ويجري بعض الفحوصات المبدئية التي أكد خلالها أنني لا أعاني أية مشاكل.. وأن جميع الأشعة والتحاليل التي أجريت أثناء وجودي في المستشفى منذ يومين أكدت ذلك أيضاً.. إلا أنه أبدى استعداده لإعادة الفحوصات إن كان هذا سيشعرني بالارتياح.

لم أجد ما أقوله في واقع الأمر.. فكيف أخبره أنني وحدي أرى شبهاً إلى حد التطابق بين زوجي وعابر الطريق؟!.. وأن لا أحد سواي يرى هذا التطابق؟!.. لست طبيبة.. لكن كلامي هذا لا يقع تحت بند أي مرض على حد علمي.. لذا غيرت دفة الحديث لأسأل الطبيب فجأة:

- هل جثة عابر الطريق ما زالت موجودة في المستشفى؟!.. هل تعرّفوا هويته؟!.

هز رأسه نفياً بأسف.. ثم قال:

- سيتم الاحتفاظ بجثته في مشرحة الأدلة الجنائية على ما أظن.. لحين التوصل إلى هوية صاحبها.. كما علمت من المحقق أنه لم ترد لرجال الشرطة أية بلاغات اختفاء لأشخاص في اليومين الماضيين.. فلا بصمات ولا أقارب.. وكأن هذا الرجل غير موجود في السجلات الرسمية أصلاً.

سكتُّ دون رد، وقد سبَّب لي كلامه المزيد من التوتر.. إنه التوتر من المجهول.. من أنّ شيئاً غريباً للغاية يجري حولي ولا أفهمه!!.. فأنا لا أعرف إلى أين ستقودني الأحداث.. أم أن الأحداث طبيعية للغاية وأنني أعاني مشكلة ما؟!.. ولماذا ما زلت مصرة على عدم ذكر هذه النقطة لأحد؟!.. إنه ذلك النداء الغامض المستمر في عقلي الباطن والذي يطلب مني أن أنتظر قليلاً.

خرجت بعدها لأقلَّ ابنتي من بيت والديّ عائدة إلى شقتنا.. وعقلي قرر طي تلك الصفحة بصورة مؤقتة.. على أمل توصل رجال الشرطة إلى شيء في الأيام القادمة.. وإلا سيظل الموضوع لغزاً لا أملك سوى أن أركنه جانباً رغماً عني وأعود إلى ممارسة حياتي الطبيعية.. فقضيت يومها ساعات ممتعة مع زوجي وابنتي.. انتهت بسهرة جميلة شاهدنا خلالها فيلماً عائلياً على

قناة الأفلام.. لآخذ ابنتي بعد ذلك إلى فراشها.. وأذهب بدوري إلى غرفتي.. حيث وجدت زوجي في انتظاري وهو يطلب مني مساعدته في استبدال ثيابه بسبب إصاباته التي تعيق حركته إلى حد ما.. تماماً كما فعلت بالأمس أيضاً.

فاتجهت ناحيته بابتسامة عريضة لأبدأ بمساعدته.. إلا أن ابتسامتي هذه سرعان ما تبخرت ليتجهم وجهي فجأة.. لأنني رأيت نفس الجرح القطعي القديم الذي رأيته على كتف عابر الطريق!!.. هذا مستحيل!!.. لا يمكن أن يكون ما يحدث أمراً عادياً.. لم يمتلك زوجي هذا الجرح في كتفه أبداً.. إنه لم يكن على كتفه حتى في الأمس!!.. أنا واثقة من ذلك.. كما أن رأسي بخير بعد تأكيد كل التقارير الطبية وتطمينات الطبيب.. إذا كيف سأفسر ما أراه؟!.

عندها فقط.. عجزت عن السكوت أكثر.. فقررت أن أتحدث أخيراً وأكشف ما بجعبتي.. حين سألت زوجي بتوجس وبصوت مرتجف:

- عزيزي.. أريد أن أخبرك بأمر ما.. هناك تساؤلات تشعرني باضطراب شديد.. لكنني لا أجرؤ على ذكرها لأحد سواك.. وأرجوك ألا تتهمني بالجنون أو بالتوهم.. لأنني أعرف ما

رأيته جيداً.. أنت تعلم أنني رأيت جثة عابر الطريق.. رأيت ملامحه جيداً.. إنه نسخة منك.. إلا أن أحداً لم يلحظ ذلك سواي ولا أفهم السبب.. حتى أنت نفسك لم تلحظ الشبه بينكما.. ثم ماذا عن هذا الجرح القديم على كتفك.. إنه لم يكن موجوداً من قبل.. بل كان على كتف عابر الطريق.. فكيف انتقل إليك؟!.. هناك أمر مريب ما زلت عاجزة عن فهمه.

كانت ردة فعله تفوق الوصف.. وتفوق كل ما يمكن أن يأتي به خيال أي إنسان.. إذ ابتسم بطريقة ساخرة غامضة لم أعهدها منه طوال سنوات زواجنا.. وقال بصوت هامس وهو ينظر إلى عيني مباشرة:

- لا يوجد أي خطأ يا عزيزتي.. لقد وجدتُ الفرصة لآخذ مكان زوجك كونه شبيهي.. وها قد نجحت.. بعد أن تعمدت الوقوف أمام سيارتكم في ذلك اليوم لأتسبب في الحادث وألتقي به وجهاً لوجه بعيداً عن أعين الناس.. كي تبدأ عملية الاستحواذ التي تتطلب بعض الوقت للاكتمال.. لهذا انتقل جرحي القديم إلى كتفه اليوم فحسب.. إنها آخر مراحل الاستحواذ.

بدت البلاهة على وجهي.. ففي البداية ظننته يمزح.. لكنه ابتسم بخبث ليقول فجأة بصوته المبحوح بفعل الحادث أو هو صوته فعلياً:

- ربما لم تسمعي من قبل بمصطلح (الشبح الشبيه)*.. إنه يُطلق على الشبح الشبيه بشخص على قيد الحياة.. إنني الشبح الشبيه بزوجك.. وقد انتحلت شخصيته وأخذت مكانه في عالمكم.. عالم البشر!!.. ألم تلاحظي أن رجال الشرطة لم يتوصلوا أبداً إلى هوية عابر الطريق رغم وجود جثته في المستشفى؟!.. إنه جسدي أنا قبل أن أستحوذ على جسد زوجك.. بكل تأكيد هناك بعض الاختلافات الطفيفة جداً.. كالبصمة مثلاً.. مع بعض الجوانب الشخصية.. هل فهمتِ الآن يا عزيزتي.

قلت باضطراب واضح:

- هذه مزحة.. أنت تمزح.. أليس كذلك؟!.

---

* (الشبح الشبيه) أو (السائر المزدوج) (Doppelgänger) مصطلح شهير جداً ألماني الأصل.. ويتكون من مقطعين (Doppel) وتعني (مزدوج).. و(Ganegr) وتعني (السائر).. ويطلق المصطلح على الأشباح الشبيهة بمن هم على قيد الحياة.. على عكس ما يشاع دوماً حول الأشباح بأنها تمثل الموتى فقط.. وقد استخدمت الكلمة لأول مرة عام 1796 ميلادية من قبل الكاتب الألماني (جان بوول) (Jean Paul) في إحدى رواياته.. علماً أن مفهوم (الشبح الشبيه) لا يختلف كثيراً عن مفهوم القرين في الدين الإسلامي.

لم يرد على سؤالي.. بل ظل ينظر إلي صامتاً بذات الملامح الساخرة الماكرة.. عندها قلت بصوت خرج من حلقي مرتجفاً مزعزعاً:

- ما هذا الهراء؟!.. ثم إنّ الجثة كانت حقيقية تماماً في المستشفى.. ولم تكن شبحاً.

أطلق ضحكة طويلة ساخرة مبحوحة ليقول:

- ليس هراء يا عزيزتي.. الجثة حقيقية لأن الأشباح الشبيهة ليست طيفية كبقية الأشباح.. إننا فقط نعيش في بُعد آخر.. وندخل عالمكم بطرق ملتوية حين تتاح لنا الفرصة.. لأن هناك بعض القوانين الكونية التي تمنعنا من ذلك.. ألا تلاحظين أحياناً تغير بعض البشر فجأة؟!.. فيتحول أحدهم إلى البرود أو اللامبالاة بعد أن كان شخصاً عصبياً مثلاً.. وآخر يصبح ثرياً بعد أن كان شديد الفقر جاف القريحة خال من الإبداع؟!.. إنكم تبررون ذلك بالإرادة والجهد.. لكن الواقع يا عزيزتي أنهم أشباح شبيهة.. وقد قتلوا نُظراءهم من البشر واستحوذوا على أجسادهم.. فالبشر أغبياء.. والاستحواذ على أجسادهم مع الاحتفاظ بهويتنا وقدراتنا يجعلنا نصل إلى المجد والثراء بسهولة في عالمكم.

ابتعدت عنه لا إرادياً وأنا أتراجع ذعراً.. ليكمل وهو لا يكف عن التحديق بي:

- في كثير من الأحيان يلتقي عالمنا مع عالمكم في نقاط تماس محددة.. وعند نقاط التماس هذه تحدث فجوة تمكننا من التسلل إليكم.. وقد تمكنت من التسلل لعالمكم بنجاح كما ترين.. نعم.. إنني الشبح الشبيه لزوجك.. وسأجعل نسختك من بني جنسي تأخذ مكانك قريباً.. بعد أن عثرْت على ثغرة لدخول عالمكم عليَّ باستغلالها سريعاً.. قبل أن ينكشف الأمر وتتدخل قوانين الطبيعة لإغلاقها.

كان كلامه أقرب إلى السخف كما ترون.. ولم أكن لأصدق منه حرفاً لولا ما رأيت بنفسي في المستشفى.. ولولا ملامحه التي بدت هادئة صارمة وكأنه يعني كل ما يقوله.. هل.. هل هذا يعقل؟!.. لم أجد الوقت لأفكر بالرد على كلامه.. لكني شعرت أن هناك أموراً مخيفة تجري.. وأن عليَّ أن أنقذ ابنتي بغض النظر عن مصداقية ما يقوله هذا الرجل.. ولو كان هو زوجي فعلياً.. فعلى الأرجح فقد عقله.. وإن كان هذا التفسير لا يجيب عن الأسئلة التي ملأت رأسي.

عندها قررت التحرك.. لأطرح كل الأفكار جانباً.. وأهرع تجاه عباءتي وآخذها بسرعة، ثم أخرج من الغرفة وأقفل على زوجي الباب وسط نظراته الساخرة.. وكأن ما أفعله لن يغير شيئاً.. مما ضاعف من مشاعر الرعب التي تلبّستني.. فذهبت لأوقظ ابنتي التي كانت قد نامت للتو.. لتنهض المسكينة بفزع وهي تسألني عمّا يجري.. بالطبع لم أجد الوقت لأشرح لها.. بل طلبت منها الاستيقاظ فوراً وأنا أتجه إلى دولابها لأخذ معطفها.. و.. حين فتحت باب الدولاب.. أطلقت شهقة عنيفة للغاية، وكاد أن يغمى علي من شدة الرعب.. لأنني رأيت جثة ابنتي في الدولاب!!!.. يا إلهي.. من التي تنام على سرير ابنتي إذاً؟!.. التفتُّ بحدة ناحية السرير.. لأجد ابنتي -لم أعد أعرف إن كانت هي ابنتي بالفعل أم لا- وهي تنظر إليّ بطريقة ساخرة لا يمكن أن تصدر عن طفلة في عمرها.. لتقول بصوت رزين للغاية:

- إنني الشبح الشبيه بابنتكِ.. وقد أخذت جسدها منذ ساعات قليلة وتركت جسدي القديم في الدولاب.. الآن لم يتبقّ سواك.. الأفضل أن تسلمي جسدك لنا.. فلن يصدقك أحد أبداً يا عزيزتي.

لا أعرف أي جنون جعلني أجري بهذه السرعة خارجة من شقتنا وعباءتي تتطاير وتكشف عن ثياب النوم.. كنت أركض باندفاع ودون تفكير للخروج من حينا السكني بأكمله.. متجهة إلى الشارع العام وكل ما يهمني الابتعاد عن هذا الكابوس.. ثم رحت أصرخ بسائقي السيارات كي يتوقف أحدهم وينقذني.. ولحسن الحظ توقف أحدهم بالفعل.. شابّان ركنا سيارتهما ونزلا ليصيحا بي طالبيْن أن أهدأ.. لتتوقف سيارة أخرى.. وأخرى.. أمام حالة الهلع التي عشتها وأنا أتحدث بكلمات متفرقة تكاد تتقطع معها أنفاسي.. لقد كانت هذه الضغوط كثيرة عليّ.. وهذا ما جعلني أقع أرضاً في حين أسمع من يصيح طالباً جلب زجاجة ماء لي فوراً.. فأمسكت بقدم أحدهم وأنا أرجوه ألا يتركوني!!.

لا أعرف كم من الوقت قد مرّ حين وجدت رجال الشرطة والمسعفين حولي وهم يحملونني حملاً إلى سيارة الإسعاف، بعد أن عجزت تماماً عن المشي من هول الموقف!.. ومن ثم قاموا بأخذي إلى المستشفى.. والواقع أنني لم أهدأ لحظة واحدة رغم ذلك.. إذ ظللت أصيح أن حياتي في خطر.. وأن عليهم حمايتي.. إلى أن شعرت بوخز في ذراعي وأحد الأطباء يخبرني أن هذا سيساهم في تهدئتي.. لأشعر بثقل شديد في

رأسي.. وبأن الكلمات تذوب في فمي.. لأغمض عيني بفعل المخدر وأغيب عن الوجود.

استيقظت بعد ساعات طويلة ووجدت نفسي في إحدى غرف المستشفى.. حيث يقف على مقربة من سريري زوجي وابنتي وهما يحملان نظرات خبيثة كريهة لم أرها في عينيهما من قبل!!.. عندها فقط.. استرجعتُ ذاكرتي كلها.. لقد كانت هذه ابنتي بالفعل.. قبل أن (تتأبلس).. وحين تذكرت أنهم قتلوا ابنتي وقبلها زوجي واستحوذا على أجسادهما.. زاد انهياري.. وأطلقت صرخة مدوية وأنا أطلب النجدة كي يأتي أحدهم بسرعة ويحميني من تلك الأشباح الشبيهة.. لتدخل إحدى الممرضات سريعاً وتمسك ذراعيّ بقوة كي تمنعني من النهوض، وهي تنظر إليّ بأسف واضح وتطلب من أفراد أسرتي المزيفة الخروج فوراً.. ثم تأتي زميلتها وتحقنني بمهدئ للمرة الثانية.. يا إلهي!.. ليت هناك جهاز تخطيط للمشاعر -على غرار جهاز تخطيط القلب- فهذا هو السبيل الوحيد كي يعرف الأطباء أن أسرتي المزيفة هذه لا تشعر بذرة أسف تجاهي.

اتجهت القصة بعد ذلك إلى ما هو مُتوقّع بسبب كلامي الذي بدا للجميع شبيهاً بكلام المجانين.. حيث تقرر نقلي إلى

مستشفى الطب النفسي.. خاصة وأن رجال الشرطة لم يعثروا على أية جثث في دولاب ابنتي.. أو في أي مكان آخر.. يبدو أن أسرتي المزيفة قامت بإخفاء جثة ابنتي الحقيقية.. أما جثة عابر الطريق -والتي كانت الأمل الأخير بالنسبة لي لإثبات أنه نسخة من زوجي- فقد عرفت فيما بعد أنهم قاموا بنقلها إلى الطب الشرعي لعدم استدلالهم على هوية صاحبها.. وهناك قام أحدهم بتشويه ملامحها بالكامل.

من فعل ذلك؟!.. الأشباح الشبيهة بكل تأكيد.. إنهم يملكون القدرة على الولوج إلى أي مكان.. فلا يمكن أن تعيقهم الحواجز المادية.. لكن رجال الشرطة عزوا الأمر لعبث أحدهم.. حيث تمت إحالة عدة أشخاص إلى التحقيق لمعرفة الفاعل.. وأنا أدرك جيداً أن تحقيقاتهم السخيفة هذه لن تقود إلى شيء.. لأنني واثقة مما رأيت.. أنا لست مجنونة أبداً.. أنا فقط رأيت ما لا يراه الآخرون.. وحين ترى ما لا يراه الناس.. سيتهمونك بالجنون.

على كل حال.. إنني أشعر بمأمن الآن على الأقل في مستشفى الطب النفسي.. فهُم لن يسمحوا لمن انتحل شخصية زوجي أو ابنتي بالاقتراب مني بناء على طلبي.. بل ورفضت استقبال

أي زائر من أقاربي أو صديقاتي.. فأنا لم أعد أثق بأحد.. حتى الأطباء والممرضات الذين يراقبون حالتي.. وهذا ما يجعلني أراقبهم بدقة.. وأحاول حفظ طباعهم وشخصياتهم كي لا تقتلهم الأشباح الشبيهة وتأخذ مكانهم.. إنني أبذل كل جهدي لأحمي نفسي.

يجب أن أكون شديدة الحذر.. خاصة وأن الشبح الشبيه كالقرين في مفهومنا الديني كما قرأت ذات مرة.. قادرٌ على إخفاء نفسه.. ويقال أيضاً أنه لا ينام أبداً.. فيظل يتجول قريباً منك طوال الوقت.. حتى أثناء نومك.. وربما يُسقِط شيئاً عن عمد أو يسبب ضجة ما لو شعر بالملل.. لذا يتوجب عليّ الحذر المستمر.

لقد أخبرت الطبيب النفسي المشرف على حالتي بقصتي كاملة.. وأقسمت له أن زوجي تغير.. وكذلك ابنتي.. حيث بدا هذا واضحاً من خلال نظراتهما وابتسامتهما.. وحتى كلامهما الغريب والمخيف عن الأشباح الشبيهة.. مما يؤكد أن قصتي حقيقية.. وإنني في كامل قواي العقلية.. لكن الطبيب ظل يهدئ من روعي ويخبرني أن ذلك قد يعود إلى الحادث المروري الذي بدأت من خلاله القصة كلها.. وأن الحادث

-ربما- أثّر على حالة زوجي وابنتي النفسية.. كما ذكر شيئاً عن قصة قديمة لعامل أمريكي.. حيث حدث انفجار ما بسبب أحد الأعطال.. فدخل قضيب حديدي يزن 6 كجم في رأسه وخرج من الجهة الأخرى.. إلا أن الرجل لم يمت رغم استحالة ذلك من الناحية الطبية.. وإنما تعافى من إصابته مع مرور الوقت.. ولكن شخصيته تغيرت تماماً.. حتى إنّ أصحابه قالوا أن هذا ليس صديقهم الذي يعرفونه*.

يقول الطبيب الأحمق هذا الكلام وأنا أصر على كلامي بالمقابل.. وأؤكد له أن القصة ليست كما يتصور.. لأنني على ثقة أن الشبح الشبيه بذلك العامل الأمريكي قد استحوذ على جسده.. لكن.. ومع كل أسف.. فإن التفسير الدائم عند الأطباء النفسيين للقصص المتعلقة بالأشياء الخارقة للطبيعة أنها مرتبطة بالأمراض النفسية.. ليتهم يضعون احتمالاً -ولو ضئيلاً- لصحة قصتي.. ليتهم يفعلون!!.

* كل ما هو مذكور حقيقي.. وقد حدث ذلك عام 1848 لرئيس عمال بناء محطة السكة الحديد (فينيس جيج) (Phineas P. Gage) في ولاية (فيرمونت) الأمريكية.. حيث نجا (فينيس) من الموت مخالفاً بذلك كل قوانين الطب.. وكما هو مذكور في القصة.. فقد تغيرت شخصيته كثيراً بعد الحادث وأصبح وكأنه شخص آخر.

الخاتمة

أعلمُ أن القصة غريبة.. ولولا صولاتي وجولاتي الكثيرة في عالم الماورائيات.. لرفضتُ كل ما قالته (سديم) دون تردد.. لكن يستحيل أيضاً أن أكتب في تقريري أنني أصدق كلامها رغم قصتها المُحكمة التي سمعتها على لسانها أكثر من مرة.. فالعلم بقواعده الصارمة يرفض ذلك.. ويقول إنها ببساطة مريضة نفسية مصابة بمتلازمة (كابجراس) (Capgras)*.. وهو اضطراب نفسي يجعل المصاب به يظن أن أحد المقربين له قد تم استبداله بشخص مطابق في المظهر.. وربما يخطط لقتله.. لأنه يشعر بأن هذا القريب خطر على حياته.. علماً بأن هذه المتلازمة تصيب الإناث أكثر من الذكور.

إنني أبذل كل جهدي لعلاج (سديم).. ولا أعرف إن كان كلامها سيتغير حين تتحسن حالتها.. أم أنها ليست مريضة أصلاً وستتمسك بكل ما قالته وتظل نزيلة المستشفى لفترة لا أعلم مداها.

عموماً.. أرى هنا ارتياحها وشعورها بالأمان وهي تؤكد لي باستمرار أنها لا ترغب أبداً في الخروج، ولن تستقبل أي زوار..

---

* اضطراب نفسي حقيقي.

أما زوجها.. فقد حاول زيارتها مرة أو مرتين.. لكني منعته من لقائها بناء على رغبتها.. ولن أبالغ لو قلت أنني حاولت فهم أعماقه.. إلا أنه بدا قليل الكلام شديد الغموض وهو يخبرني متفهماً أنه يحترم رغبتها.. وكأنه كان ينتظر مني هذا الرد كي يكون لديه العذر بعدم المجيء مرة أخرى.. ليتوقف عن زيارتها تماماً بعد ذلك بالفعل.. مما أثار لدي أسئلة كثيرة من المستحيل العثور على إجابات لها مع الأسف.

ماذا سيحدث لـ(سديم)؟!.. لا أعلم.. فجميع الاحتمالات قائمة كما ترون.. سوى الاحتمال الذي تصر عليه باستمرار للأسف.. أن تكون الأشباح الشبيهة تلك قد استحوذت على أسرتها.. فهذا ما لن تستطيع إثباته.. وما لن يصدقه أحد أيضاً.. حتى لو صدقته أنا نفسي.



رؤى

يحكيها: (راكان)

قد تكون هذه المرة الأولى التي أقابل فيها رجلاً بهذا الود والبساطة.. أتحدث هنا عن ذلك الشاب الذي تجاوز عمره الثلاثين بقليل.. والذي دخل مكتبي في وقت متأخر أثناء مناوبتي المسائية.. حيث ألقى التحية بصوت هادئ وبابتسامة ودودة وهو يعرّفني بنفسه.

كانت ابتسامته مفاجئة بالنسبة لي.. فهذا المكان ليس للمبتسمين.. ومعظم من يأتون في وقت كهذا أكتشف أنهم يمرون بمشكلة محددة ويبحثون عن حل سريع لها.. إنه ذلك التصور الخاطئ الذي ذكرته عشرات المرات أنّ الطبيب النفسي قادر على صنع المعجزات.. وذلك الالتباس الخاطئ المعتاد بين الطبيب النفسي والمستشار النفسي*.. لكن لا بأس.

رحت أتأمله بشيء من الاستغراب!.. إنه ممتلئ الجسد قليلاً.. حليق الوجه.. شعره لا يختلف عن شعر أي شاب في سنه.. وقد بدا وكأنه يعيش حالة صفاء ذهني وثقة شديدة بالنفس.. حتى

* رغم الحديث عن هذا الأمر في أحد الأجزاء السابقة.. إلا أنه من الضروري التذكير بأن (الطب النفسي) و(علم النفس) تخصصان مختلفان وليسا شيئاً واحداً كما قد يظن البعض.. فالطبيب النفسي هو من درس في كلية الطب ثم تخصص في الطب النفسي.. وهو يستخدم الأدوية والعقاقير الطبية للعلاج.. أما (علم النفس) فلا علاقة له بكلية الطب.. وإنما يعتمد في تشخيصه على تتبع مراحل العمر المختلفة للمريض لمعرفة الأسباب الأساسية للمرض.. ليقوم بعدها بعمل خطة علاجية على هذا الأساس من خلال الجلسات المستمرة دون تدخل للأدوية.

شعرت للحظة وكأنه ضيف يزورني في شقتي.. مما جعلني -لا شعورياً- أنهض من مكاني مرحباً به.. ثم أخرج له زجاجة ماء من ثلاجتي الصغيرة، أخذها بامتنان ليجلس مسترخياً.

ثم بدأ كلامه فجأة بعبارة غريبة تُناقض ابتسامته:

- دكتور.. سأموت في أية لحظة خلال الفترة القادمة.. بل ربما سأموت الآن.. فالمشكلة أنني أجهل أين وكيف ومتى.

قلت بابتسامة حائرة أمام هذا التناقض بين ابتسامته وكلامه:

- لا أحد في العالم يستطيع التنبؤ بموتك.. مهما قدَّم لك من أدلة لا تقبل الشك.. إلا إذا كان ينتظرك حكم بالإعدام مثلاً.

ابتسم لكلامي.. ثم قال معترضاً:

- صدّقني.. الأمر ليس كما تتصور.. إنني أترقب الموت في أية لحظة.. وفي كل خطوة أخطوها.. حتى استسلمت تماماً لمصيري.. وجهزت نفسي للقاء خالقي.

إذاً هي ابتسامة من فقد الأمل في الحياة، وبات مستعداً للموت.. تماماً كابتسامة العجائز.. مما أشعرني بالأسف تجاهه وأنا أجهل قصته.. لأقول بشيء من الود:

- لماذا لا تخبرني أولاً بالمشكلة؟!.. لكي أفهم ما تقصد بكلامك هذا.

لم يرد.. بل فتح زجاجة الماء ليجرع منها قليلاً.. ثم قال والابتسامة لا تفارقه:

- اسمي (راكان محمد الـ..).. أرجوك أن تتذكر هذا الاسم جيداً.. لأنك ستقرأه في صفحة الوفيات قبل نهاية العام.

لم أرد عليه.. بل أشرتُ إليه بهدوء أن يكمل.. عندها تنهّد ليخرج كل الهواء الموجود في جوفه.. ثم:

- حسناً.. يجب أن تعلم أولاً أنني ظللت أرفض فكرة الزواج لفترة طويلة.. وكنت مستعداً لتحمّل العزوبية الأبدية شأني شأن أي شاب يرغب في العبث ولا يريد الارتباط.. إلا أن اللقاء بتلك الفتاة كان مختلفاً عن أي لقاء آخر.. فمنذ سنوات قليلة.. وفي إحدى الليالي.. لم يكن هناك أحد في البيت سواي والخادمة.. بعد خروج جميع أفراد الأسرة في زيارة لأحد الأقارب.. حين سمعتُ صوت جرس الباب.. لأذهب بشيء من الكسل وأنظر من شباك غرفتي المطل على الشارع كي أتعرّف هوية الزائر.. فوجدت فتاة رائعة الجمال تنتظر بترقب وتوتر واضحين..

الأمر الذي أثار فضولي كثيراً.. وجعلني أنهض مسرعاً إلى جهاز المناداة كي أسألها عن هويتها.. لكنها لم تعرّفني بنفسها.. بل سألت عني وعن اسمي الثلاثي.. وقالت أنّ عليّ النزول والتحدث إليها فوراً وللضرورة القصوى.. مما أصابني ببعض الارتباك.. فطلبت منها الانتظار وعقلي يطرح التساؤلات واحداً تلو الآخر عما تريده فتاة كهذه ويتطلب أن تزورني في بيتي.. متنفساً الصعداء لعدم وجود أحد من أفراد العائلة.. وإلا كنت سأقع في موقف شديد الحرج لن أعرف كيف سأفسره.

سكتَ طويلاً دون سبب واضح.. ثم قال:

- ارتديت شيئاً ملائماً.. وطلبت من الخادمة أن تعود إلى غرفتها وسط نظراتها المتسائلة عن هوية الزائر.. متجها بعدها إلى الباب لأفتحه بلهفة.. وأجد ذات الفتاة تنتظر.. أعتقد أنها في مثل سني.. أو تصغرني بسنوات قليلة ربما.. كان جمالها يمنعني من النظر إليها بجدية.. فابتسمت رغماً عني.. وسألتها عن هويتها.. لتغمغم بصوت قلق مضطرب للغاية إنها خائفة من ردة فعلي تجاه ما ستقوله.. لكن علي أن أصدقها.. لأنها هنا من أجل إنقاذيّ فحسب على حد قولها.

سألته باستغراب:

- إنقاذك من ماذا؟!.

لم يرد على سؤالي.. بل أكمل مباشرة:

- لم يكن كلامها مشجعاً كما ترى يا دكتور.. فتجاهلت ما قالته.. وسألتها مرة أخرى بشيء من الاستغراب عن هويتها.. لتخبرني بضراعة أن اسمها ليس هاماً.. وأنها لا تريد إخافتي.. لكنها تعلم أنني سأسافر في رحلة إلى إحدى الدول الآسيوية مع اثنين من أصدقائي -وهو ما كنت أخطط له بالفعل- وسنتعرض للقتل هناك على يد إحدى عصابات الشوارع.

قلت مبتسماً في حيرة:

- لم أفهم.. كيف عرفت الفتاة بأمر سفرك؟!.

هز كتفيه كناية عن جهله وهو يكمل:

- لقد كان كلامها كفيلاً بإصابتي بالصدمة بالطبع.. حتى إنني سألتها بحدة -بعد أن شعرت بتهديد مباشر لحياتي- عن كيفية علمها بذلك!!.. ويبدو أن سؤالي هذا وضعها في المشكلة التي كانت تتوقعها وتخشاها.. إذ أخبرتني بصوت

متوسل أنني لن أصدقها رغم أنها ستقول الحقيقة.. والحقيقة أنها تحلم بأشياء كثيرة وتتحقق دوماً.. أي أنها ليست أحلاماً فحسب.. بل رؤىً*.. وتقول أيضاً أنها لم تدرك امتلاكها لمقدرة رؤية المستقبل في أحلامها إلا منذ شهور قليلة.. حين فوجئت أكثر من مرة أن ما تراه أثناء نومها يتحقق بدقة.. آخرها ذلك الشاب الذي أراد تجربة نوع جديد من المخدرات.. حيث عرفت ملامحه وسمعت اسمه من قبل أصدقائه في الحلم.. لتقرأ بعد أيام قليلة في وسائل التواصل الاجتماعي خبر وفاته بجرعة زائدة من المخدر.. وقد أقسمت منذ ذلك الحين أن تبذل كل جهدها لإنقاذ الناس.. فلا يمكن أن تترك الضحايا يموتون دون تحذيرهم ومحاولة إنقاذهم على الأقل.

حسناً.. أعرف جيداً أن القدرات البشرية قد تصل إلى حدود مخيفة أحياناً.. ولولا التجارب العجيبة التي عشتها أثناء عملي

* يجب أن نوضح الفارق بين الرؤى (Visions) والأحلام (Dreams).. فالرؤى تتعلق بمشاهدة أحداث مستقبلية بشيء من الدقة أثناء النوم.. في حين أن الأحلام مجرد خليط لا معنى له من ذكريات الإنسان.. علماً بأن الرؤى جزء من الأحلام.. لكن الأحلام ليست جزءاً من الرؤى.. ويجب أن نذكر هنا أن العلم لا يعترف بالرؤى ويراها مع الأحلام شيئاً واحداً.. إلا أن الأديان السماوية وبعض الأديان الوثنية ترى أن هناك فارقاً بين الكلمتين.. وأن الرؤى تتحقق في عالم الواقع بالفعل.

كطبيب نفسي.. والتي سردتُ الكثير منها في مذكراتي السابقة.. لما منحت كلام (راكان) أي اهتمام.. لكنني قلت غير مصدق رغم ذلك:

- قد تكون مجرد مزحة من أحد الأصدقاء.

رد ضاحكاً:

- هل تظن أنني لم أفكر بهذا الاحتمال يا دكتور؟!.. لكنني طرحته جانباً سريعاً حين تذكرت أنه من العسير أن يقبل أحد بزيارتي في بيتي ليضع نفسه في موقف كهذا من أجل مزحة.. خاصة إذا كانت فتاة.. كما بدت لي من ثيابها وسيارتها الحديثة أنها لا تعاني أية مشاكل مادية تدفعها لفعل ذلك من أجل المال مثلاً.. ناهيكَ أنني أعرف أصدقائي جيداً.. وأؤكد لك أن أحداً منهم لن يفعل شيئاً كهذا على سبيل المزاح.

لم أجد ما أرد به على كلامه.. ليكمل:

- لم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. فقد أثارت الفتاة فضولي كثيراً حين أخبرتني ببعض تفاصيل الرحلة كما رأتها أثناء نومها.. حتى إنّ نبرة صوتي تغيرت وازدادت حدة وأنا

أكرر سؤالي لها عن هويتها وكيفية معرفتها بذلك.. لتؤكد وهي تقسم باكية أنها مجرد رؤيا.. وأنها رأت خلالها جواز سفري أثناء عبوري منطقة الجوازات في المطار.. فعرفت منه اسمي.. وقد أقسمت أيضاً أنها بذلت جهداً كبيراً لمعرفة عنوان سكني.. فقط كي تحذرني من المصير الذي ينتظرني على حد قولها.. حيث قررت المجيء إلى بيتي بنفسها بدلاً من الاتصال الهاتفي مثلاً.. لتؤكد لي جدية الموضوع.

سألته بحيرة:

- كيف تصرفت معها؟!.. فلا يمكن أن تثبت لك حدثاً مستقبلياً مهما أقسمت وقدمت لك من معلومات.

رد بأسف:

- بالفعل.. فقد وجدت أن هذا الجدل لن ينتهي إلى شيء.. مما جعلني أستأذنها ببرود كي أعود إلى الداخل.. ويبدو أنها كانت مستعدة لذلك.. إذ هزت رأسها متفهمة.. ثم وضعت في يدي ورقة كتبت عليها اسمها ورقم هاتفها.. لتؤكد لي أن ليس لديها ما تخشاه وأنها ليست مبعوثة من أحد.. وهي ترجوني للمرة الأخيرة بعدم السفر وبإقناع

صديقيّ بذلك.. لتلتفتَ وتعود أدراجها إلى سيارتها بعد أن شعرت أن ليس هناك المزيد لتقوله.

قلت بغموض:

- من المؤكد أنك شعرت بالخوف ولم تسافر.. في حين فشلتَ بإقناع صديقيك بعدم السفر.. فلقيا حتفهما.

نظر إلي بدهشة شديدة.. لكني قلت مفسّراً:

- هذا السبب الوحيد الذي سيجعلك تزورني الآن.. فمن المؤكد أنك تيقنت من صدق رؤيتها.. وهذا لن يحدث إلا إذا نجوت أنت.. ومات صديقاك.

رد بحزن:

- أنت محق في كلامك.. لقد عجزت عن حماية أقرب أصدقائي يا دكتور مع كل أسف.. فهما لم يأخذا كلامي على محمل الجد.. وظنا أنني أختلق الأعذار ولا أرغب بالسفر لأسباب لم أخبرهما بها.. و.. لا يمكن أن تتخيل حجم الألم الذي عشته حين قرأت عن تعرضهما للقتل في وسائل التواصل الاجتماعي التي لم تمنح الخبر حقه أصلاً.. خاصة مع تعتيم أهاليهما على النبأ كما علمتُ بسبب

ما تردد أنهما كانا في حالة سكر.. وقد فهمت حينها أيضاً المعاناة النفسية التي تعيشها هذه الفتاة مع كل شخص عجزت عن إقناعه بالعدول عما سيؤدي إلى موته.. لكن.. ليت القصة توقفت عند هذا الحد.

عضَّ شفتيه أسفاً.. وكأن القادم أسوأ.. ثم أكمل:

- بعد أيام من وفاة صديقيّ.. وبعد أن تجاوزت الصدمة.. اتصلتُ بالفتاة لأخبرها أنها كانت محقة في تحذيرها.. وشكرتها كثيراً لأنها أنقذت حياتي على الأقل.. ويبدو أنها كانت على علم بما حدث بسبب حرصها على متابعة الوفيات بصورة يومية في وسائل التواصل الاجتماعي.. إذ بينت لي ارتياحها كونها من المرات النادرة التي تتمكن فيها من إنقاذ شخص من الموت -وإن عجزت عن إنقاذ صديقيَّ- كما أكدت أنها لن تتوقف عن المحاولة لإنقاذ الناس طالما تزورها تلك الرؤى أثناء نومها.. وأنها تفكر بالاحتفاظ برقم هاتفي وبأرقام هواتف كل من أنقذَ ت حياتهم.. حتى نساعدها في إقناع أي شخص بالعدول عن قرار سيؤدي إلى موتهِ.. كون مهمتها في هذه الحالة قد تصبح أسهل قليلاً.. خاصة وأنها لا تطلب المال مقابل جهودها.

قلت مغمغماً:

- لو كانت صادقة في كل ما تفعله.. ولا تطلب المال بنفس الوقت.. فهي فتاة نبيلة دون شك.

هز رأسه إيجاباً.. ليكمل:

- لقد وجدتها فرصة لأسألها عن أمر الرؤى هذه.. لتؤكد أنها لا تتحكم في ذلك.. فأحياناً يستغرق الأمر بضعة أيام لا تمر عليها خلالها أية رؤى.. وقد يطول الأمر لأسابيع قليلة بين رؤيا وأخرى.. ربما لديها نوع من الشفافية الروحانية -إن صح التعبير- أو أنها تمتلك موهبة ربانية ما وقد بدأت بالظهور على السطح مؤخراً لسبب غير مفهوم.. علماً بأنها لم تبح أبداً لأي فرد من عائلتها بهذا السر.. وتقول أيضاً أنها تذهب متنكرة لمن ترغب بتحذيره.. فتارة ترتدي الحجاب.. وتارة ترتدي شعراً مستعاراً.. أو حتى نظارة.. كي تظل دوماً في الظل لا يعرفها أو يتذكر ملامحها أحد.

سألته مغمغماً:

- لماذا؟!.

رد ببساطة:

- يكفيها ما تعيشه من ضغوط نفسية بسبب رؤاها تلك.. كما أنها لا تريد أن يتهمها أحد بالاحتيال حتى وإن كانت لا تطلب المال.. دعك من الإهانات التي تسمعها ممن تحاول تحذيرهم من المصير الذي ينتظرهم ولا يصدقونها.

سألته وقد شعرت أن القصة ستتخذ منحى آخر:

- وهل لجأت إليك طلباً للمساعدة؟!.

قال وهو يومئ برأسه إيجاباً:

- مرة واحدة.. حين طلبت شهادتي وشهادة من أنقذَتهم.. للاتصال بذلك الشاب من أجل إقناعه بالعدول عن عملية جراحية لتخفيف الوزن.. إذ رأت في نومها أنّ الطبيب سيرتكب خطأً فادحاً سيودي بحياته.. ولحسن الحظ.. تمكنا من إقناع الشاب كي يبحث عن طبيب آخر.

قلت مفكراً:

- من المؤكد أن تنمو بينكما علاقة ما.

سألني مستغرباً:



- كيف عرفت؟!.

أجبت بهدوء:

- من الصعب أن تنقذ حياتك فتاة جميلة كما وصفتها.. وأن تكون بهذا النقاء والصدق من دون أن تقع في غرامها.

مسح رأسه بكلتا يديه.. ليستطرد:

- نعم يا دكتور.. هو ما تقول.. لقد وقعت في حب الفتاة سريعاً بالفعل.. وأخبرتها أنني معجب بجمالها وبشجاعتها.. وأن قدرتها الغريبة جعلتها فتاة مقدسة بالنسبة لي.. لذا لم يستغرق الأمر كثيراً لأقنعها بالزواج.. خاصة بعد أن أصبحت بيننا عِشرة من نوع مختلف كما ترى.. وبالطبع مررنا بكل إجراءات الخطوبة.. ومن ثم الزواج والإقامة معها في شقتنا الجديدة في إحدى المناطق السكنية الحديثة.. كل هذا من دون أي يشعر أحد من أهالينا بأن زواجنا يختلف عن أي زواج آخر.

سكتنا قليلاً مع صوت الأمطار التي بدأت تهطل في الخارج.. وقد شعرنا ببعض الاسترخاء.. لأقول مازحاً:

- من المؤكد أنكما شكلتما ثنائيًّ إنقاذ رائع.

رد بجدية:

- لا شك في ذلك.. فقد ساعدتها في تحذير ضحايا محتمَلين بناءً على رؤاها.. وتمكنّا من إنقاذ شخصين من الموت لأسباب مختلفة.. عندها بدأت قصتي تتغير وتتخذ مساراً آخر مع مرور الأيام.. حين رحت أفكر بطريقة مختلفة للأسف.. طريقة حقيرة.. أن أستفيد مادياً من موهبة زوجتي.. فبإمكاننا أن نصبح أثرى الأثرياء لو تمكنا من ابتزاز الناس.. لن نمنحهم أية معلومات إلا إذا دفعوا لنا.. كل ما على زوجتي أن تخبرني بتفاصيل ما تراه في نومها.. ثم أقوم أنا بالباقي.

عقدت حاجبي غضباً ولم أعقّب على كلامه.. فقط قلت بصبر:

- سيكون من المستحيل إقناع الناس إذا كنت تطلب منهم المال.

هز رأسه نفياً وهو يقول:

- على عكس ما تقول.. فبسبب المعلومات الدقيقة التي كنا نخبرهم بها كما تراها زوجتي في أحلامها.. باتوا يصدقوننا ويطلبون منا المزيد من التفاصيل كي يتجنبوا الخطر.. أي أننا نخبرهم أنهم سيلقون حتفهم قريباً.. ونؤكد لهم

علمنا بذلك من خلال بعض المعلومات التي تجعلهم يأخذون كلامنا بجدية.. لكننا نخفي التفاصيل الأهم والتي ستنقذ حياتهم.. كمكان أو زمن أو طريقة موتهم.. إلى أن يدفعوا لنا ما نطلبه.. مع ضمان إرجاع أموالهم لو كانت المعلومات التي سنمنحها لهم غير كافية مثلاً.. كنت أفعل كل هذا وجهاً لوجه مع الضحايا المحتمَلين كي أثبت قوة موقفي.

نظرت إليه بغضب أمام هذا الاستغلال الحقير والتلاعب بأرواح الناس.. وقلت معقباً:

- لا أظن أن زوجتك وافقت.. فهي إنسانة نقية فاضلة.

كان كلامي واضحاً بالطبع.. فلو كانت زوجته فاضلة.. فهذا يعني أن (راكان) فضلات شخص.. أضحكني هذا الخاطر لأبتسم رغماً عني.. إلا أنه لم يلحظ ابتسامتي.. بل أكمل مباشرة:

- أعترف أن زوجتي رفضت تماماً استغلال الناس بهذه الطريقة.. فحاولت إقناعها في البداية بكل الطرق.. إلى أن لجأت إلى فرض القوة مع الأسف.. نعم.. لقد ضربت زوجتي في أكثر من مناسبة لأجبرها على الخضوع.. وربما زاد طغياني بسبب طيبتها الشديدة واستسلامها لي وعدم

نقل مشاكلها إلى عائلتها.. فقد كنت أعرف طريقة تربيتهم لها كما نقلتْها لي بنفسها.. وما تردده والدتها دوماً أن الفتاة خلقت لتتزوج وتتبع زوجها.. ولا تخرج من بيته إلا إلى قبرها.. كل هذا جعلها ضعيفة خاضعة لي.

بكل تأكيد.. ومن المرجح أنّ والديها مارسا الوصاية الكاملة عليها منذ طفولتها.. حتى أصيبت بما يطلق عليه (عقدة سندريلا)*.. وحين خرجت المسكينة من بيت عائلتها إلى عش الزوجية.. بدت ضعيفة هشة تتلمس الظلام.. عاجزة عن اتخاذ أي قرار.. فهي عمياء خارج الدائرة التي اعتاد وعيها البصري عليها.. غريب فعلاً أن تجد عائلة تربي بناتها على هذا المبدأ في زمننا الحالي.. لتجد الزوجة تفضل البقاء مع خوف تعرفه.. بدلاً من الذهاب إلى خوف لا تعرفه.. وهو طلب الطلاق مع كل تبعاته.

---

* (عقدة سندريلا) مصطلح لم يتم الاعتراف به رسمياً بعد في علم النفس.. ويُطلق دوماً على المرأة التي تشعر بحاجتها الدائمة إلى الذكور وخضوعها لهم في حياتها.. وذلك بسبب ترسخ فكرة الوصاية لديها منذ الصغر.. حيث يلبي أفراد عائلتها كل احتياجاتها من دون السماح لها باتخاذ أي قرار مع عدم السماح لها بالاعتماد على نفسها.. وقد تم استخدام المصطلح لأول مرة على يد كاتبة الغموض الشهيرة (أجاثا كريستي) (Agatha Christie) إلا أنه لم ينتشر إلا على يد الكاتبة والإخصائية النفسية الأمريكية (كوليت داولينغ) (Colette Dowling) عام 1981 في كتابها الشهير (عقدة سندريلا: خوف النساء الخفي من الاستقلال) (The Cinderella Complex: Women's Fear of Independence).

لاحظ شرودي.. فأراد إعادتي إلى قصته.. ليقول:

- المهم أنّ قسوتي هذه كانت فعالة كما ذكرت لك.. حين استسلمت لي زوجتي بعد فترة قصيرة.. وبدأت تخبرني برؤاها كي تتجنب غضبي.. وقد تمكنت من الحصول على مئات من الدنانير من سيدة بعد أن أقنعتها أن ابنها في خطر، وأنني سأنقذه إذا دفعت لي.. مع معلومات دقيقة عنه عرفتُها من رؤيا زوجتي ومن المزيد من البحث عن هويته كي أكون مُقنعاً أكثر.. بالإضافة إلى الاتصال ببعض ممن أنقذتْهم زوجتي سابقاً أمام تلك السيدة لتتأكد من كلامي.. مشروع ناجح كما ترى.. ولا يحتاج إلى رأس مال أو مصاريف.

لم أمنع لسانيَ هذه المرة من قول رأيي صراحة:

- مشروع ناجح.. وحقير كذلك.

لم يتأثر بإهانتي الصريحة.. وكأنه يعلم أنه يستحقها.. لذا تجاوزها ليقول:

- المال يصنع المعجزات في تغيير سلوكيات البشر يا دكتور.. أنت تدرك ذلك جيداً.. فجميعهم يكرهون السارق.. لكن ماذا لو حصل أحدهم على فرصة غير أخلاقية للثراء وهو

يعلم أن أحداً لن يكشف أمره؟!.. صدقني المفاجأة ستكون كبيرة.. وأنا لم أفهم تلك الحقيقة إلا حين وجدت في هذا الأمر تجارة رابحة.. مما جعلني أتحول تدريجياً إلى شخص آخر.. إلى إنسان شديد الجشع يمتلك بضاعة لا تقدر بثمن.. رؤى زوجتي.. لكني ظللت قلقاً رغم ذلك.. كنت أخشى أن تخفي عني بعضاً من رؤاها.. أو تتصرف من دون علمي وتحذر الناس بنفسها بلا مقابل كما كانت تفعل سابقاً.. وهذا ما جعلني ألجأ إلى حلول أخرى أكثر فاعلية.. فبدأت أراقبها بدقة.. حتى فرضت عليها أن تترك وظيفتها.. وحبستها في شقتنا بعد أن ملأتها بكاميرات المراقبة لكي تكون تحت أنظاري طوال الوقت.. ولم أعد أسمح لها بالخروج إلا برفقتي شخصياً خوفاً من أن تستعين بهاتف آخر مثلاً.. باختصار.. أحكمتُ رقابتي عليها.. مع قسوتي وضربي المستمر لها وإذلالها.. وقد نجحت في إخضاعها بالكامل تحت إمرتي.. إذ تطور الأمر وراحت تخبرني برؤاها من دون أن أسألها.. كون هذا أهون الشرور بعد عجزها عن تحذير الناس بسبب القيود التي فرضتها عليها.

كانت مشاعري مشتتة.. من الصعب تصديق أن يمتلك إنسان موهبة كهذه.. ومن الصعب أيضاً تصديق ما قد يتحول إليه

آخر بسبب المال.. ويبدو أن (راكان) لمحَ امتعاضي من كلامه.. فأكمل بحزن:

- كنت أحصد المال حصداً.. خاصة بعد أن ضاعفت (أتعابي) إلى آلاف الدنانير.. وبات دخلي الشهري أضعاف راتبي من تجارة (الرؤى) هذه.. لأترك وظيفتي أنا أيضاً.

قلت بصراحة:

- مع الأسف.. اللحظة التي يضرب فيها المرء زوجته.. هي نفسها اللحظة التي يخلع فيها رداء الرجولة ويرتدي رداء الجبروت.. فما يفصل الرجولة عن الجبروت هو العطف والاحتواء.. الرجولة تدوم يا (راكان).. بينما الجبروت يردعه العقاب والقانون.. أظن أن حالة زوجتك النفسية ساءت كثيراً.. إنها ترى موت الناس باستمرار في رؤاها.. وتراك قاسياً جشعاً تستغلهم مادياً من أجل إنقاذهم.. بل وترى ذاتها تذبل وتموت بين يديك يوماً بعد يوم.. ولا حيلة بيدها لإنقاذ نفسها.. ما الذي سيتبقى من أعصابها بعد ذلك؟!.

رد بأسف لم يهمني:

- لم أهتم لحالتها النفسية وقتها إطلاقاً.. لكنَّ كلامك

صحيح.. فلا أنسى أنها حاولت أكثر من مرة أن تتخلص من موهبتها هذه.. لعل أخطر محاولاتها عندما فوجئت بأنها تعلمت صناعة مخدر ما من أحد مواقع شبكة المعلومات كي يسبب لها هلوسات تذهب عقلها.. علّ الرؤى تتوقف.. مما أثار غضبي كثيراً.. وجعلني أعاقبها بقسوة لم أظن يوماً أنني قادر عليها.. إذ سحبتُ زوجتي من شعرها إلى غرفة النوم وسط توسلاتها وبكائها.. وهناك أمسكت بالعقال وضربتها بكل قوتي، وعلى كل أنحاء جسدها الذي امتلأ بالكدمات.. أنا الذي لم أضرب أحداً في حياتي.. ولم أشهد أية واقعة عنف منذ طفولتي.. لكن.. يبدو أن الطمع أنساني من أنا.. وأنساني أيضاً أنّ هناك حدوداً لكل شيء.. فالطمع مصيبة حقيقية يا دكتور.. بل هو مصدر كل الشرور.. إنه كالمخدر الذي يتسرب إلى خلايا مخّك.. ليتمكن من تفكيرك ومن ثم تصرفاتك.. إلى أن يجعلك ترى الحياة بصورة مختلفة شديدة الأنانية.. فلا تكترث لآلام ومصائب الآخرين.. حتى يصبح قلبك أقسى من عظامك نفسها.. لذا لم أتأثر وأنا أراها تقبل قدمي وتتوسل لي أن أرحمها.. لأن دموعها بدت بلا قيمة.. مثل انهمار الأمطار على البحر.

قلت باشمئزاز لا أدري إن كان قد لاحظه:

- أعرف ذلك جيداً.. وما فعلته مع زوجتك خير دليل على صحة كلامك.. إن القسوة تُدرَّس.. ولن يتعلمها الإنسان من تلقاء نفسه.. إلا في حالة الطمع للأسف.. فدوافع الطمع كلها موجودة في هرم (ماسلو) الشهير في علم النفس.. والذي يلخص حاجات الإنسان الأساسية التي لن يحتمل الحياة من دونها*.. ووجود أي خلل في هذا الهرم.. يتسبب غالباً بالطمع.. مما يؤدي إلى ممارسة كل الشرور.

---

* هرم (ماسلو) للاحتياجات (Maslow's Hierarchy of Needs) عبارة عن نظرية في علم النفس قدمها (ابراهام ماسلو) (Abraham Maslow) في ورقته البحثية (نظرية الدافع البشري) عام 1943 والتي ناقش فيها حاجات الإنسان الخمس الأساسية.. وهي:

1- الحاجات الفسيولوجية (Physiological Needs) و(الفسيولجيا) هو علم دراسة وظائف الأعضاء والأجهزة الحيوية للإنسان.. أي أن الحاجة الفسيولوجية تتمثل بأساسيات الحياة كالتنفس والشرب والأكل والجنس والنوم.

2- حاجات الأمان (Safety Needs) وتتمثل بالأمان المادي والوظيفي.. مع خدمات الحياة الأساسية التي توفرها الحكومات غالباً كالمستشفيات ومراكز الشرطة والإطفاء.. وكل ما يشعر الإنسان بالاستقرار والطمأنينة.

3- حاجات الحب والانتماء (Love & Belonging Needs) وتشمل الحاجة إلى الحب والصحبة والألفة.. أو الانتماء إلى عائلة أو جماعة.. إلخ.

4- حاجات التقدير (Esteem Needs) وهي المتعلقة باحترام الذات والحاجة إلى احترام الناس.. وتعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي تدعو البعض للتباهي والتفاخر حتى لو على سبيل الكذب.

5- حاجات تحقيق الذات (Self-actualization Needs) وتتمثل بالسعي لتحقيق الطموح والأهداف وبناء السمعة الطيبة مع الحصول على الوضع الاجتماعي المميز.

لم يرد على كلامي.. بل استطرد بعد قليل من الصمت:

- كان أسوأ ما حدث.. حين جاءتها تلك الرؤيا بوقوع حريق منزلي سيودي بحياة عدد من الأطفال.. فحصلت منها على المعلومات كاملة كالعادة.. ثم بحثت عن الأب إلى أن عثرت عليه وحذرته مما سيحدث.. وأنني أستطيع إنقاذ أطفاله لو دفع لي المبلغ الذي أطلبه.. ولم أنسَ ذكر تفاصيل دقيقة عن عائلته رأتها زوجتي في منامها كي يقتنع بكلامي.. لكنه رفض بعناد.. وطردني غاضباً وهو يؤكد وجود خدعة ما.. وأن الأعمار بيد الله ولا أحد يستطيع التنبؤ بالمستقبل.. وأنا أصرخ بدوري وأؤكد له أنها رؤيا وليست نبوءة عرافين.. و.. في النهاية.. اكتشفتُ أن زوجتي حصلت على هاتف الرجل بوسيلة ما.. واتصلت به لاحقاً لتخبره بكل التفاصيل كي ينقذ أسرته ومن دون أي مقابل مادي.. مما أثار جنوني كونها تعبث بما هو أشبه بمصدر رزقنا الوحيد.. خاصة وأن الأسرة التي حاولتُ ابتزازها ثرية.. والمبلغ الذي طلبته من الأب كان كبيراً.. فضربتُ زوجتي يومها انتقاماً.. ضربتُها بعنف جعل وجهها ينتفخ بسبب الكدمات.

سكتَ طويلاً وهو يستذكر تلك اللحظات.. فقال وهو ينظر إلى الأرض:

- كانت تئن من الألم وهي ترمقني بنظرات القهر والكراهية معاً.. لكن هذا لم يحرك مشاعري.. كل ما رأيته أنني خسرت صفقة لا تعوض.. وبصراحة.. أنا لا أفهم لماذا لم تلجأ زوجتي إلى القضاء لتشكوني أو لتطلب الطلاق.

قلت محاولاً تحليل الموقف:

- الأمر ليس بهذه البساطة.. وإلا لم يكن هناك أي وجود للعنف المنزلي في العالم.. إذ توجد دراسات نفسية كثيرة تؤكد خوف الأنثى من زوجها العدواني.. وتراه خارق القوة يعجز القانون أن يحميها منه.. وهناك من تظن أنها لن تكون أفضل حالاً بعد طلاقها بسبب نظرة عائلتها للمطلقة.. ولا ننسى أيضاً من تربَّت منذ طفولتها على الخضوع للرجل كما في حالة زوجتك*.. ثم معاملتك القاسية لها وابتزازك للناس.. لقد رأت فيك أسوأ صفات البشر.. دعك من عذر الطلاق أصلاً.. فما الذي ستخبره للقاضي؟!.. إنه لن يأخذ بقصة الرؤى هذه.. ولا أظنها

---

* كل هذه الأسباب مذكورة بالفعل في دراسات أكاديمية حول العنف المنزلي.

تستطيع إثبات تعرضها للضرب وأنك آذيتها جسدياً.. أمر كهذا يحتاج إلى تقارير طبية تؤكد إصاباتها.. وهو ما لم تفعله على ما يبدو.

عاد إلى إكمال قصته بعد لحظات من التفكير في كلامي:

- أنت محق في كلامك بالطبع.. فقد تغيرت زوجتي في غضون سنوات قليلة.. أصبحت قليلة الاستحمام.. شعرها مبعثر.. لا تبدل ثيابها كثيراً.. وفقدت الكثير من وزنها.. كما توقفت عن الاهتمام بمظهرها.. حتى بدت صامتة دوماً كتمثال من الشمع لا يكترث لمن يزوره وينظر إليه.. أي أن روحها كانت تتآكل من الداخل.. وهذا أمر طبيعي بعد أن حرمتها من خصوصيتها تماماً.. ففقدان الخصوصية يؤدي دوماً إلى الاستعباد.. وما زاد من سوء حالتها.. ادّعاؤها الدائم أمام والديها أنها بخير حين نزورهم.. كي لا تقلقهما بشأنها.. وأنت تعلم يا دكتور أن تمثيل الرضا أسوأ من الألم نفسه.

سألته وقلبي يمتلئ حقداً عليه:

- ماذا عن الإنجاب؟!.

رد وهو يتنهد:

- لقد أرجأتُ موضوع الإنجاب إلى أن أطمئن تماماً على رصيدي البنكي الذي بدا واعداً للغاية وأنا أعد الرزم المالية التي تتكدس عندي.. وزوجتي تنظر إلي بيأس.. علماً بأنني كنت أفشل أحياناً في إقناع الضحايا المحتمَلين.. وهذا أمر طبيعي ألا يصدقك البعض مهما قدمت لهم من أدلة.. لكن معظمهم كانوا يستسلمون ويمنحونني ما أريد.. بعد أن يُصدموا بكل ما أعرفه عنهم من معلومات.. وكانوا يفضّلون أن يغامروا بشيء من مالهم على أن يغامروا بحياتهم.. ولا أخفيك أنني بدأت حينها أفكر بـ(غسيل) الأموال التي حصلت عليها.. كوني سأصبح مُسائلاً قانونياً لو حاولت إيداعها في البنوك.. من الطريف أن هناك من يغسل أموال المخدرات.. وآخر يغسل أموال تجارة الأسلحة.. أما هنا فأنا أغسل أموال الأحلام.

قلت بسخرية مريرة:

- مؤكد أن هناك مصيبة حدثت.. وإلا لما عاد إليك رشدك وجئت إلى هنا.

نظر إلى الأرض بخجل.. ليقول:

- إنك تقرؤني جيداً.. بالفعل.. لقد انقلبت الأمور رأساً على عقب منذ بضعة أسابيع.. حين كنت في غرفتي أعبث بهاتفي.. لتدخل زوجتي بخطوات آلية.. ثم تقف أمامي في منتصف الغرفة وهي في أسوأ حال ممكن.. لأجدها ممسكة بشفرة حلاقة وتخبرني أنها قررت الانتحار.. فالموت لم يعد يهمها كثيراً كونها تعيش حياة ميتة أصلاً على حد قولها.. وقالت أنها متعبة من نفسها ومني.. ولن تعرف الراحة إلا في موتها.

قلت متوقِّعاً شيئاً كهذا:

- حقّاً إنّ الأوقات التي لا نخاف فيها.. مخيفة!!.. إذ لم تعد زوجتك تخاف على حياتها بعد أن حرمْتَها من كل شيء.

هز رأسه موافقاً.. ليكمل:

- لكن.. لم يكن هذا أهم ما في الأمر.. فقد أخبرتني أن هناك رؤيا جديدة رأتها في منامها منذ يومين.. وكانت عن موتي شخصياً!!.. نعم يا دكتور.. لقد رأت زوجتي موتي.. وأكدت لي أنني سأموت قبل نهاية هذا العام.. إلا أنها لم تذكر لي أية معلومات إضافية.. ولم تنتظر لحظة واحدة بعد

ذلك.. عندما هرعت مسرعة إلى الغرفة الأخرى وأقفلت الباب على نفسها.. بالطبع أصبتُ بالهلع.. فنهضت من مكاني متجهاً إليها.. ورحت أصيح بها من خلف الباب أن تفتح لي وإلا سيكون عقابها شديداً.. لكنها لم تستجب.. مما جعلني أفقد أعصابي وأضرب الباب بكل قوتي.. إلى أن نجحتُ في كسره بعد دقائق طويلة.. دخلت لأجد زوجتي تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن نحرَتْ نفسها.. وهي جرأة غريبة لم أعهدها فيها!!!.. كان من المستحيل إنقاذها مع هذا الكم الهائل من الدماء.. و.. لك أن تتخيل الجنون الذي أصابني.. ليس بسبب انتحارها.. بل لنبوءتها المخيفة التي لا أعرف إن كانت حقيقية أم لا.

قلت ما يمليه ضميري وبكل صدق:

- بصراحة.. لا أظن أنها كانت تكذب.. أتحدث هنا من الناحية النفسية.. أعتقد أنها لم تفكر في الانتحار أصلاً إلا حين رأت موتك.. إذ وجدت أن هذا أفضل انتقام من زوجها الذي باتت تخشاه كالموت ذاته.. فبهذه الطريقة ستتركك معلّقاً لا تعرف بالضبط موعد موتك سوى أنه قريب.. إننا حالياً في شهر (مارس).. أي أن أمامك بضعة

شهور قبل نهاية العام.. وقد تموت في أية لحظة منها.. إذا كانت قصتك في السياق الدقيق الذي أخبرتَني عنهُ.

ردَّ مبتسماً:

- أنا أيضاً ظننتُها تقول الحقيقة.. لقد بدت لي عيناها صادقتين.. وقد تستغرب من هدوئي الشديد واطمئناني رغم علمي بصدق رؤيتها.. هذا لأنني انهرتُ كثيراً لأيام طويلة وكنت في أسوأ حال ممكن.. حتى عبارة (الانتظار قاتل) لم أجدها منصفة آنذاك.. لأن الانتظار لا يقتل أبداً.. إنه عبارة عن نهايات سوداء متعددة يرسمها خيالك في أوقات القلق والخوف.. لتتذوق خلالها العذاب ولا تشعر بالراحة أبداً.. على عكس القتل نفسه الذي يؤدي إلى نهاية واحدة.. موتك بطبيعة الحال.. وهذا ما جعلني أشتعل وأنطفئ ألف مرة في اليوم مترقباً لحظة وفاتي.. لكني بدأتُ أخيراً أتصالح مع نفسي.. لأدرك حجم الجرم الذي ارتكبته بحق الأبرياء الذين لم أنقذهم أو أكترث لحياتهم.. فقط من أجل دوافع مادية.. وبحق زوجتي التي لاقت مني صنوف العذاب.. آملاً أن يسامحني الله على ما فعلت.. حتى إنني تصدقت بكل الأموال التي ربحتها من استغلال الناس.

لم أهتم لكلامه.. فتوبته شأنه الخاص.. بالنسبة لي هو مجرد مجرم حقير عذّب فتاة بريئة ودمَّر حياتها بسبب طمعه.. هذه الفتاة كانت لا تجرؤ على التعبير عن رأيها.. ثم تتصرف بجرأة لا تصدق.. وتقتل نفسها بهذه الطريقة البشعة.. إنه اليأس وفقدان الثقة بالجميع.. و.. يبدو أن (راكان) تجاهلَ نظرات الاحتقار التي ظللت أرمقه بها.. فغمغم مستغرباً:

- لكني ما زلت عاجزاً عن فهم سبب إقدام زوجتي على الانتحار بعد أن رأت موتي في منامها.. كان بإمكانها أن تتركني أموت من دون تحذير.. وستتخلص مني بهذه الطريقة لتصبح حينها مجرد أرملة شابة تعيش حياتها بصورة طبيعية.

قلت بسخرية مريرة:

- تعيش حياتها بصورة طبيعية؟!.. هل تمزح؟!.. عادةً المواقف الصغيرة تحسم حيرة كبيرة.. وبالنسبة لزوجتك.. فالمواقف كبيرة جداً.. أكبر من حيرتها نفسها.. لقد كرهت المسكينة الحياة بأكملها بسببك.. دعك من تلك الرؤى التي دمرت حالتها النفسية وأصابتها باكتئاب شديد.. أن ترى بين الحين والآخر أشخاصاً هنا وهناك سيموتون وعليها أن

تحاول إنقاذهم.. خاصة مع نظرات الشك والاحتقار التي ينظر فيها الناس إليها ظنّاً منهم أنها تفعل كل هذا لغرض ما.. فمهما كان الإنسان خيِّراً.. لا يمكن أن يستمر عطاؤه إلى الأبد.. أعتقدُ أن زوجتك رأت طريقة موتك.. وانتبهت حينها إلى تلك الحقيقة المروعة.. أنها لن تكون سعيدة أبداً.. حتى لو تخلصت منك.. وحتى لو تزوجها بعدك من يحبها ويسهر على راحتها.. فالرؤى لن تتوقف.. لذا قررت الانتحار.. لكن ليس قبل أن تنتقم منك وتجعلك مُعلَّقاً هكذا لا تعرف طريقة وموعد موتك.. سوى أنه قريب.

دمعت عيناه وهو يقول:

- أنا لا أشعر بالأسف نحو نفسي.. بل نحوها هي.. إنني حتى لم أكترث لتحقيقات الشرطة الذين لم يخرجوني من دائرة الشكوك إلا مؤخّراً.. وبعد أن أثبتت تحقيقاتهم عدم وجود جريمة قتل.. بل ولم أكترث حتى لتساؤلات أفراد عائلتي وعائلتها، ولنظراتهم التحتية أنّ لي دوراً في انتحارها.

كدتُ أبصق في وجهه.. فهذا الوغد لم يكن ليتوب لولا انتحار زوجته بسببه.. حقّاً إنّ البعض يستحقون أن تكرههم إلى

درجة أنك تحب كرهك لهم.. ثم كيف نستطيع شرح حقوق الإنسان لشخص حيوان كهذا؟!.. و.. في فورة غضبي من مصير زوجته.. قلت بشيء من العدوانية:

- لقد كانت علاقتكما إنسانية.. لكن تصرفاتك حيوانية.

انحدرت دمعة من عينه وهو يقول بحزن مدافعاً:

- الشيطان وسوسَ لي.

رددتُ بحدة:

- وسوسَ لك.. لكنه لم يجبرك.

تنهد بألم أمام هذا التوبيخ المستمر.. ثم استطرد:

- كنت فقط أحتاج أن يستمع أحدهم إلى قصتي ومن منظور نفسي بحت.. لهذا جئت إليك.. وقد كنت أتوقع منك أن تفقد أعصابك في واقع الأمر.. لأنني أدرك جيداً حجم جريمتي.. كما قابلتُ أيضاً أحد رجال الدين.. وأخبرته بقصتي هذه كي يساعدني على التوبة.

تمالكتُ نفسي.. فأخذتُ نفساً عميقاً.. وقلت بعد ذلك ما يمليه عليّ ضميري:

- عليك الحذر أثناء قيادتك للسيارة.. وأرجو ألا تذهب إلى البحر إن كنتَ من رواده.. ولا تسافر في الطائرة.. ولا...

قاطعني وهو ينهض من مكانه استعداداً للرحيل:

- لم يعد يهمني ذلك يا دكتور.. إنني أعيش حياتي من دون حذر.. لقد صحا ضميري.. حتى وإن صحا متأخِّراً.. لكنه صحا على كل حال.. وربما لو بحثتَ عن اسمي في صفحات الوفيات خلال الفترة القادمة.. فستجده.

ذكّرني بعدها باسمه كاملاً كي أتابع صفحات الوفيات إذا أردت.. وكأنه يؤكد لي صدق قصته.. أعرف أنه جاء إليّ محاولاً كسب تعاطفي.. وأعرف أنّ محاولة كسب عطف الناس من أهم سمات ضعف الشخصية بالمناسبة.. بالتأكيد.. إنّ شخصاً يضرب زوجته ويهينها بهذه الطريقة.. يستحيل أن يمتلك شخصية قوية.

وبالطبع.. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد.. فقد أصابني فضول شديد بعد رحيل (راكان).. إذ رحتُ أتتبع الوفيات بصورة يوميّة.. إلى أن قرأتُ اسمه بعد حوالي شهرين.. واتصلت برقم الهاتف الموجود في إعلان الوفاة لتقديم العزاء على

أنني صديق له.. حيث عرفت مِن الذي حادثني أنّ (راكان) مات مختنقاً بطريقة غريبة جداً لم أتوقعها أبداً.. وأجزم أنه لم يتوقعها هو نفسه.. فقد ابتلع بالخطأ عود تنظيف الأسنان، وأصيب بسبب ذلك بالتهاب الصِّفاق*.. إنه أمر نادر الحدوث بالفعل.. وأقرب إلى السخف.. وأنا لا أعرف في حياتي شخصاً مات بهذه الطريقة سوى كاتب أمريكي قرأت عنه ذات مرة**.

عموماً يبقى السؤال: هل رأت زوجته وفاته بالفعل كما كان تحليلي؟!.. أم أنّ ما حدث مجرد صدفة؟!.. يستحيل معرفة ذلك.. ولا أعرف إن كان يتوجب عليّ الشعور بالأسف لموت (راكان).. بعد أن عرفت دوره الحقير في موت زوجته قبله.. إنها من أشعرُ تجاهها بالأسف فعلياً.. لقد عاشت حزينة معظم سنوات عمرها دون أن تلفت انتباه أحد.. كقبر قديم نبتت عليه الأعشاب.. ورغم ذلك.. كانت تضيء الطريق للجميع.. لهذا انطفأت!!.

---

* (التهاب الصِّفاق) (Peritonitis) هو التهاب يصيب (الغشاء الصِّفاقي).. وهو غشاء يشبه الحرير يبطن جدار البطن الداخلي ويغطي الأعضاء الموجودة داخل البطن أيضاً.. ويحدث هذا الالتهاب عادة بسبب عدوى بكتيرية أو فطرية.

** يتحدث عن الكاتب الأمريكي (شيروود أندرسون) (Sherwood Anderson) الذي توفي بهذه الطريقة عام 1941.

كم وددت لو التقيتُ بها.. كم وددت لو لجأَتْ إليّ.. كنت سأقف معها وأساندها.. وربما أتمكن من مساعدتها لمواجهة زوجها والتعايش مع رؤاها.. ومن ثم العدول عن الانتحار.. للأسف!.. إنها واحدة من الهزائم الصغيرة التي أمرّ بها بين حين وآخر.. لتذكرني بكل الهزائم السابقة.. فهي من القصص التي لا تصل إلينا إلا بعد فوات الأوان.

أتذكر أنني قرأت في مراهقتي قصة مؤلمة عن الفتاة الفرنسية (بلانش مونييه)*.. ولم أنم يومها من شدة الحزن والاشمئزاز

* (بلانش مونييه) (Blanche Monnier).. فتاة فرنسية عاشت في الفترة (1849-1913).. حيث أحبت محامياً فقيراً تقدم لخطبتها رسمياً عام 1876.. لكن أهلها رفضوه بسبب مكانته الاجتماعية المتدنية بالنسبة لهم.. إلا أن (بلانش) هددت عائلتها بأنها ستهرب مع حبيبها لو أصروا على رفضهم.. وحين تأكد والداها من صدق تهديداتها.. قاما بحبسها من دون رحمة لأكثر من 25 عاماً عارية تماماً وفي غرفة مظلمة أغلقوا جميع منافذها.. وظل والداها وشقيقها يرمون إليها بقايا طعامهم من تحت الباب طوال تلك الفترة.. ولم يسمحوا لها حتى بالذهاب إلى الحمام.. فظلت تقضي حاجتها في غرفتها التي غصت بالقاذورات والحشرات والجرذان.. وقد كان الجيران على علم أن (بلانش) محبوسة.. لأنهم كانوا يسمعون صراخها طوال الوقت.. لكن الأم ظلت تدّعي أمام الجميع أنها حبست ابنتها لأنها أصيبت بالجنون.. وهو ما كان متبعاً في ذلك الزمن تجاه كل من يصاب بمرض عقلي.. وفي عام 1901 تلقى رجال الشرطة رسالة غامضة ما زال مصدرها لغزاً حتى الآن.. حيث تحدث فيها مرسلها عن (بلانش) وما تتعرض له من تعذيب نفسي على يد أفراد عائلتها.. فقرروا التأكد من مصداقية الرسالة.. وحين فتشوا البيت.. هالهم ما رأوا في تلك الغرفة المظلمة التي لم تر النور لسنوات طويلة.. إذ كانت (بلانش) تعيش عارية وسط بقايا المأكولات والحشرات والجرذان والبراز وكل ما يشمئز منه المرء.. ناهيك عن الرائحة الكريهة التي أزكمت أنوف الجميع.. كما اتضح أنها=

لوحشية بعض البشر.. أما الآن فلا أجد نفسي متأثراً كما يفترض.. لقد أصبت بمناعة نفسية تجاه تلك الحوادث.. تماماً كالجرّاح الذي يرى الدماء طوال الوقت ولم يعد الأمر يؤثر به.. وهذا في واقع الأمر لا يسعدني.. لكن ما عساي أن أفعل أمام ما أراه من مصائب في حياتي المهنية؟!.

وبعيداً عن أحداث القصة.. ما زلت أتساءل عن القدرات البشرية.. وكيفية امتلاك زوجة (راكان) -رحمها الله- لموهبة كهذه.. حقاً ليست كل موهبة نعمة.. أن ترى حوادث حقيقية لموت الناس في منامك.. لتستيقظ وتكون مسؤولاً عن إنقاذ حياتهم.. في حين سيروْن عملك النبيل هذا عدائياً.. ويكذبونك على الأرجح.. وربما يسخرون منك ويطردوك.

=فقدت قدرتها على النطق.. فقام رجال الشرطة بتغطية (بلانش) ونقلها سريعاً إلى أقرب مستشفى.. وعلى الفور تم إلقاء القبض على أمها وشقيقها.. أما والدها فقد توفي قبل كشف الأمر بسنوات.. ولم تعش الأم طويلاً أيضاً.. إذ توفيت بعد حوالي أسبوعين من القبض عليها لمشاكل تتعلق بأمراض الشيخوخة.. لذا فقد واجه شقيق (بلانش) التهمة لوحده.. لكنه كان محامياً.. حيث ترافع عن قضيته بنفسه.. وتمكن من إقناع القضاء أن والدته وحدها المسؤولة عما حدث.. لذا حكم عليه بالسجن لأقل من سنتين.. ليفوز بالبراءة بعد أن قام باستئناف الحكم.. ويهرب بعدها إلى مدينة أخرى متجنِّباً بطش الناس الذين تجمعوا بحثاً عنه للانتقام لشقيقته.. أما (بلانش) فقد حصلت على عناية مكثفة جداً من المستشفى.. إلى أن استعادت شيئاً من صحتها وعادت إليها قدرتها على التحدث بعبارات قصيرة.. لكنها لم تتعافَ تماماً للأسف.. فقد قضت بقية حياتها في إحدى المصحات إلى أن توفيت عام 1913.

إنها مسؤولية مرهقة جداً بالفعل.. تعجز فتاة بريئة كهذه أن تتحملها لفترة طويلة.. ناهيكَ عن قسوة وسطوة زوجها.. وقبل ذلك تربية والديها لها على الخضوع للرجل مهما كان قاسياً أو ظالماً.. فهذه من عادات وتقاليد بعض العوائل للأسف.. إذ تجد العادات والتقاليد بالنسبة لهم وكأنها ركن سادس من أركان الإسلام.. كل هذا جعل زوجة (راكان) تنزوي على نفسها يوماً بعد يوم.. إلى أن تلاشت تماماً من عالمنا.. وباختيارها.

نافذة غرفتي

يحكيها: !!!!!!

عزيزي القارئ..

بعض القصص يستحيل أن تُبدي وجهة نظرك فيها دون أن تسمعها على لسان أصحابها.. منها هذه القصة التي لامست قلبي كثيراً.. وأثارت في داخلي ذكريات ومواقف عديدة من حياتي.. إنها قصة تعجز حتى عن كتابة مقدمة لها.. فأحداثها مربكة جداً وتحوي الكثير من الألغاز.. لكن في النهاية ستفهم كل شيء.

لقد سمعت القصة من خلال تسجيل صوتي في ذاكرة أحد الهواتف الذكية.. فاضطررت إلى تفريغ كل ما سمعته على الورق كي تصل إليك.. لذا سأتركك مع أحداث القصة كما سمعتُها في التسجيل، مع بعض التصحيحات والصياغة اللغوية.. وسيكون لي تعليق في النهاية كما هي العادة.

إنها المرة الأولى في حياتي التي أقوم فيها بتسجيل صوتي أثناء بكائي.. لا أفهم سبب قيامي بذلك!.. ربما هي الرغبة القاتلة في التحدث مع أحدهم من دون أن يشعر بالضيق أو الملل مما سيسمعه مني.. ومن دون حتى أن يطلب مني التوقف.. فأنا لن أتحدث هنا عن مشكلة محددة.. بل عن حياتي بأكملها.. لذا وجدت أن ذاكرة هاتفي ستكون أفضل المستمعين لي كي أفرغ كل ما بجوفي من مشاعر.. فهذا بالضبط ما أحتاجه الآن.

ورغم أنني ما زلت شابة لم يتجاوز عمري الـ 35 بعد.. إلا أن هناك الكثير والكثير من الذكريات في حياتي.. منها المؤلمة.. ومنها الرائعة.. وجميعها تضرب جذورها في عمق وجداني.. خاصة تلك المتعلقة بأول قصة حب عشتها في حياتي مع (سليمان).. أثناء الشهور الأخيرة من دراستي في المرحلة الثانوية.. ووعوده الجميلة والمبكرة بالزواج، وبأن حياتنا ستختلف عن أية حياة زوجية أخرى.

لم يكن حب مراهقة كما قد يظن البعض.. بل كان حباً طاهراً رأيت فيه كل ملامح النضج.. حين ظل (سليمان) يؤكد لي حرصه الشديد واهتمامه بي كل يوم.. فيطالبني دوماً بالتفوق في دراستي.. ويسأل عن تقاريري المدرسية بانتظام.. مما

أشعرني بأنني كل حياته التي انتهت مبكراً جداً للأسف.. نعم.. فقد اكتشف فجأة تلك الحقيقة المروعة.. أنه مصاب بسرطان الدم وفي مراحل متقدمة منه.. لتبدأ حياته بالتدهور بسرعة غير معقولة.. لتتصل بي شقيقته ذات يوم.. وتخبرني أن (سليمان) رحل عن عالمنا إلى الأبد.. كل هذا في شهور قليلة لم أستوعب فيها ما كان يجري له، رغم أنني ظللت أتواصل معه باستمرار على أمل أن تحدث المعجزة ويشفى.

من المستحيل أن أتمكن من وصف أحزاني في تلك الفترة.. فالكلام لن يكفي للتعبير عنها.. يكفي أن أقول أنني ظللت أنظر إلى النعي في وسائل التواصل الاجتماعي وأنهار باكية عدة مرات في اليوم الواحد.. حتى ظللت على هذه الحال أياماً طويلة.. غير مصدقة أن يفقد شاب حياته ويعاني قبلها كل هذه المعاناة وهو لم يبلغ الـ 18 من عمره بعد!!.

والواقع أنني لم أكن لأتجاوز هذه الأزمة.. لولا اهتمام والدتي الشديد وبقاؤها معي معظم الأوقات.. مع مراعاة أشقائي لظروفي التي لم يفهموا بالضبط ما هي.. فقط احترموا أحزاني وتذكير والدتي الدائم لهم أن يكونوا عوناً لي.. إلى أن بدأت حالتي النفسية تتحسن بعد فترة.. مع وجود غصة لم تذهب

حتى اليوم.. لكني على الأقل تمكنت من العودة إلى حياتي الطبيعية.

لم تكن حياتي سيئة بعد ذلك.. فقد تخرجت بتفوق من المرحلة الثانوية وانتقلت إلى حياتي الجامعية.. حيث التحقت بكلية الهندسة كما كنت أتمنى.. لتمر السنوات هادئة جميلة لم يعكر صفوها شيء وسط أسرتي المتحابة المتآلفة.. مصرّة في قرارة نفسي أن أكون عند حسن ظن (سليمان) بي حتى بعد وفاته.

فكنت طالبة متفوقة في المرحلة الجامعية.. تماماً كما كنت في المرحلة الثانوية.. ملتزمة في دراستي.. مبتسمة دوماً.. أعامل الجميع بود واحترام ولا أسيء معاملة أحد.. مما جعل مني شخصية محبوبة للغاية.. وربما زاد هذا من رغبة زملائي الطلاب بالتقرب مني.. خاصة مع جمالي الأخاذ الذي يتحدث عنه الجميع.. لكنني رغم ذلك.. ظللت أعاملهم بذات الاحترام وأخبر أي زميل يحاول التقرب مني أنني هنا من أجل الدراسة.. ولا أفكر بأية علاقات حالياً.. إذ ظلت ذكرى حبي الأول مشتعلة في قلبي.

كنت مصرة على إبقاء حياتي بهذه الصورة الوردية الجميلة..

قبل أن ألتقي بـ(أحمد).. ذلك الشاب الطموح المهذب الوسيم الذي أسرني بكل تصرفاته ولباقته واهتمامه بدراسته.. لا أنكر أنني لم أدفن تماماً ذكرى (سليمان).. إلا أن قلبي كان يميل بقوة إلى (أحمد) بعد أن عرفته جيداً وسمعت وعوده، ورأيت بنفسي كيف يخطط لحياتنا معاً فيما إذا وافقت على الارتباط به.. بل وأكد لي أنه يعيش بشيء من التقشف بعيداً عن البذخ كما يفعل معظم من هم في مثل سنه.. كل هذا ليكوِّن لنفسه مستقبلاً مع شريكة حياته التي سيختارها بعناية شديدة.. وها قد وجدها على حد قوله.. فلم يكن من العسير أن أقع في غرامه بعد كل هذا.. خاصة وأننا كنا ندرس معاً.. ونقضي أوقات الفراغ في الجامعة معاً.. لينمو حبنا تدريجياً ويزدهر.. إلى أن تخرجنا معاً.

ولا أنسى أبداً ما قاله يوم تخرجنا.. حين أمسك بيدي.. ونظر إلى عينيَّ بهيام وهو يؤكد لي أنني فتاة الأحلام التي ظل يرسمها في مخيلته طوال فترة المراهقة.. وأنه يريد أن يكون بجانبي إلى الأبد.. كلام دغدغ به مشاعري وأشعرني للمرة الألف كم أنا محظوظة.

لم يطل الأمر كثيراً.. فبعد شهور قليلة من تخرجنا.. تقدم (أحمد) لخطبتي رسمياً.. لألتقي بشقيقته ووالدته للمرة

الأولى.. وأكتشف أنه خرج من بيئة شبيهة جداً ببيئتي.. لتتم الأمور بسلاسة ويقام حفل زفافنا الذي كان من أجمل أيام حياتي رغم بساطته.. وأقضي مع (أحمد) ليلة زواجنا الأولى في شقة الزوجية.. على أن نسافر خلال أيام قليلة لقضاء شهر العسل في إحدى الدول الأوروبية.

لم يعكر صفو حياتي آنذاك سوى تلك الحادثة الغريبة بعد عودتنا من شهر العسل بأسابيع قليلة.. حين استيقظت فجأة في وقت متأخر من الليل بسبب حاستي السادسة التي أخبرتني أن هناك من يراقبني أثناء نومي.. حيث تطلّب الأمر لحظات لأستعيد وعيي كاملاً.. وأنظر إلى نافذة غرفتي.. وأكتشف أن هناك من يطل علينا كون شقتنا تقع في الطابق الأرضي ونافذة غرفة النوم تطل على الشارع!!.

لقد كان من المفترض أن أشعر بالخوف أو أشهق من قوة المفاجأة لوجود هذا المتلصص الذي استغل جزءاً صغيراً من النافذة لم تغطيه الستارة.. وراح يحدق بي من خلاله.. لكني رغم ذلك.. وجدت نفسي شديدة الهدوء وأنا أحدق بدوري بذلك الشخص الذي ظلّ ينظر إلي وكأنه لم يكترث إطلاقاً لأنني رأيته!!.

كان شاباً وسيماً بدا كالملاك وهو ما يزال يحدق بي ببراءة.. هل هو (سليمان)؟!.. حبيبي الأول؟!.. يبدو لي أنه كذلك.. أعلم أن أسهل تبرير لما حدث هو الوهم أو أنني ربما في مرحلة ما بين الوعي والنوم.. لكني لم أقبل بهذا التبرير أبداً.. فقد كنت مستيقظة.. وملامح (سليمان) كانت واضحة.. إلى درجة أننا ظللنا نحدق ببعضنا بضع ثوان.. وقد بدا لي وكأنه لم يعد بشرياً.. بل جاء من مكان جميل لا ينتمي إلى قبح هذا العالم.. إلا أنه للأسف لم يبقَ لفترة أطول.. إذ اختفى فجأة.. لأشعر باطمئنان وراحة نفسية لا توصف.. وكأن هناك ملاكاً حارساً يراقبني لسبب ما ويريدني أن أكون سعيدة.. لألتفت بعدها إلى زوجي.. وأجده نائماً في مكانه وهو لم ينتبه لشيء.

لم تكن هذه الحادثة هي الوحيدة الغريبة.. فبعد شهور من زواجنا الذي لم يحدث فيه شيء يستحق الذكر سوى التأكيد على استقرار حياتي الزوجية وهدوئها.. جلست ذات يوم وحيدة في وقت متأخر من الليل أنتظر عودة (أحمد) من العمل.. كونه يعمل بنظام المناوبات في إحدى شركات النفط.. حيث كنت أشاهد التلفاز بلا اهتمام وذهني منشغل بما يمكن أن أقدمه لزوجي كهدية في عيد ميلاده الذي اقترب موعده

كثيراً.. حين سمعت طرقاً ما.. في البداية ظننت أن أحدهم يطرق باب الشقة.. لكن بعد لحظات قليلة.. اكتشفت أن الصوت يأتي من نافذة غرفة نومي.. مما جعلني أتوجس خيفةً.. خاصة وأنّ الطرقات كانت كثيرة -وإن كانت لطيفة- وكأن هناك من يرغب بجذب انتباهي لأمر ما.. فذهبت إلى غرفة نومي مباشرة كي أفهم ما يحدث.

و.. حين دخلت.. توقفت في منتصف الغرفة من دون التفكير بإنارتها.. لأن بصري تجمَّد على 5 أشخاص على الأقل في الخارج ينظرون إليّ من خلال النافذة التي لا أغلق ستارتها عادة إلا وقت النوم.. الغريب أنهم ظلوا يحدقون بي بملامحهم اللطيفة وبنظراتهم البريئة الشبيهة بنظرات (سليمان) في المرة الماضية.. أعلم أنه من المفترض أن أشعر بالخوف.. فلا يحق لأحد أن يستغل ستائر غرفة نومك المفتوحة ليطل عليك بهذه الطريقة المريبة.. بل ويطرق النافذة بكل جرأة كي تنتبه إلى وجوده.. لكني لم أشعر بالخوف إطلاقاً ولم أفهم السبب!.. وكأنهم جاؤوا من نفس العالم الذي جاء منه (سليمان) حين زارني في المرة الأولى.. من هؤلاء بالضبط؟!.. للأسف لم أجد الوقت لأفتح النافذة وأطرح عليهم هذا السؤال.. إذ اختفوا فجأة بلا أثر.

وبالطبع كان يفترض أن أخبر (أحمد) بما رأيت.. إلا أنني صرفت النظر عن الأمر هذه المرة أيضاً.. أعرف أنني أتصرف بغرابة.. لكن هناك صوتاً في أعماقي يرجوني أن أحتفظ بالسر.. وقد منحت هذا الصوت ثقتي كاملة.. بل وشعرت بأنني محظوظة إذ حصلت على فرصة الاتصال بكائنات ملائكية أجهل هويتها الحقيقية.. وهذا القرار جعلني أشعر براحة واسترخاء أكبر.

مرت بضعة سنوات.. عشت خلالها بعض الأحداث الحزينة.. مثل تدهور صحة والدي تدريجياً بسبب أمراض الشيخوخة قبل أن يتوفاه الله.. مع وفاة بعض أقاربي من كبار السن لأسباب شبيهة.. لكن حياتي الزوجية استمرت بهدوئها واستقرارها.. بل وحملت خلالها بطفلنا الأول.. الحدث الذي جعل (أحمد) أسعد رجل في العالم.. إذ لم يتركني أبداً.. وظل يحرص على راحتي طوال شهور الحمل التي لم يحدث فيها ما يستحق الذكر.. سوى لقائي بتلك الكائنات الملائكية من خلال نافذة غرفتي بين حين وآخر.. منهم (سليمان) نفسه.. الذي ظل يزورني لإلقاء نظرة سريعة تأسر قلبي وتجعلني عاجزة عن طرح أي سؤال.

لم تكن عملية الولادة بالصعوبة وبالمعاناة التي أسمع عنها دائماً ممّن سبقنني في الزواج والإنجاب.. ربما لوجود (أحمد)

معي ودعمه المستمر لي حتى في غرفة الولادة.. إلى أن وضعتُ طفلتنا الأولى.. فتاة جميلة أثارت البهجة في عائلتنا بأكملها.. وجعلت (أحمد) يحصل على إجازة من عمله فقط كي يظل معي في مرحلة التعافي من الولادة.. ولكي يتعلم أيضاً كيف يرعى طفلتنا علّه يحمل عني شيئاً من المسؤولية.. وهو ما لا يفعله عدد كبير من الرجال في عالمنا العربي للأسف.. لتكبر طفلتنا على هذا الحب والاهتمام مني ومن والدها.

لم تحدث أية أشياء غريبة أخرى في السنوات التالية.. بخلاف تلك الكائنات الملائكية الجميلة التي ظللت أراها بين حين وآخر من نافذة غرفتي.. إلى أن جاء ذلك اليوم.. حين كنت ألعب مع طفلتي وقد بلغت الرابعة من العمر منذ فترة قصيرة.. أتذكر أنني غطيت عيني بقطعة قماش كي أبحث عنها في لعبة (الغميضة) الشهيرة.. وهي تختبئ عني في مكان ما.. لأسمع صوتاً ذكورياً يقول: ((إنكِ جميلة للغاية)).. لم يكن هذا (أحمد).. بل صوت رجل آخر!!.. مما جعلني أنتزع قطعة القماش سريعاً.. لكني لم أرَ أحداً حولي!.. كنت لسبب ما أشعر أن (سليمان) يراقبني بحب.. ويريد الاطمئنان على حياتي.. لهذا لم أشعر بالخوف هذه المرة أيضاً.

تمر الأيام والسنوات.. وتصل طفلتي إلى سن التاسعة.. وقد رزقت خلالها أيضاً بطفلة أخرى بلغت الخامسة من العمر حين بدأت بعض التحولات المؤلمة في حياتي.. منها وفاة والدتي.. فبدأت عائلتنا الجميلة المتماسكة بدورها تتفكك.. لينجرف كل فرد منها في حياته الخاصة.. إلى أن أصبحت تجمعاتنا ولقاءاتنا شديدة الندرة.. لأشعر بشيء من الوحدة.. والحسرة على الأيام السابقة التي كنا نجتمع فيها بصورة دورية.. ونخرج معاً إلى الشاليه أو التخييم.. إنها مجرد ذكريات قديمة لن تعود للأسف.. كأنها لافتة ترحيبية متآكلة على مدخل قرية مهجورة.

وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. إذ راحت حياتي الزوجية تسوء لسبب ما.. ربما هو الملل.. وربما هي الطاقة السلبية التي طغت على حياتنا بعد رحيل والدتي -إن كان هناك شيء كهذا- لتبدأ مشاكلي الزوجية بِرِتم بطيء في البداية.. ثم تتزايد وتيرتها مع مرور الأيام.. حتى بتنا نتشاجر باستمرار حول أمور بسيطة للغاية.. وأصبح (أحمد) سيئ المزاج لا يحتمل النقاش كما عهدته في السابق.. ولم يعد يكترث كثيراً لمشاعري.. فتلاشت الحميمية تدريجياً من حياتنا الزوجية.. وبتُّ أتساءل

إن كانت لكل حياة زوجية فترة صلاحية.. وقد انتهت فترة صلاحية زواجنا.

لم نصل إلى مرحلة الطلاق عموماً.. ولكن هذا لا يعني نجاح زواجنا.. فزيجات كثيرة تستمر إلى النهاية رغم مشاكلها وآلامها التي لا تنتهي.. وقد يكمن السبب في صعوبة مواجهة أهالي الطرفين بهذا القرار.. أو ثمن الطلاق المادي والمعنوي.. وما سيترتب عليه من تأثير على حالة الأطفال النفسية.

كنت أشعر بوِحدة قاتلة.. حتى تربية الطفلتين أصبحت مسؤوليتي وحدي مع ابتعاد (أحمد) تماماً وانشغاله في عمله، وقضاء معظم أوقات فراغه مع أصدقائه.. وللأسف لم يكن هناك من يقف بجانبي من أشقائي بعد أن انشغل كل منهم بدوره في حياته الأسرية.. وهذا ما جعلني أنهار باكية ذات يوم حين زارتني إحدى صديقاتي في شقتي.. بعد أن قالت حرفياً أنّ روح الشقة -إن صح التعبير- لم تعد كما كانت.. فاحتضنتْني متأثرة بدموعي.. قبل أن أتمالك نفسي وأبدأ أتحدث معها عن مشاكلي مع (أحمد) الذي أصبح يكره وجودي في حياته.. ولم يعد ذلك الرجل الذي أحبني.. لكن صديقتي هذه لم تقدم

لي أية نصيحة ذات قيمة.. إلا أنني احترمت حسن استماعها على كل حال.. لتجلس بعض الوقت كي تطمئن على تجاوزي مرحلة البكاء.. وتخرج بعد ذلك مودعة.. وهي تؤكد منحي كل اهتمامها إذا احتجت إلى التحدث إليها ثانية.

أتذكر أنني ذهبت إلى غرفتي بعد أن أخذت الطفلتين إلى فراشهما.. وأنا أجهل مكان (أحمد) إن كان في عمله أم مع أصدقائه.. إذ بات يهمل حتى اتصالاتي.. ولم يعد يبادر ويتصل هو ليخبرني عن مكانه كما كان يفعل في السابق.. فظللت واقفة وسط غرفتي للحظة بعد أن نسيت سبب دخولي إليها*.. ثم تذكرت.. فقد كنت أتمنى أن أرى تلك الكائنات الملائكية التي تظهر لي بين الحين والآخر من النافذة.. آملة أن يأتي أحدهم وينقذني من هذه الحياة التي تلاشت منها كل الأشياء الجميلة.. بدلاً من مجرد الوقوف ومراقبتي كما يحدث دوماً.

* يحدث هذا معنا جميعاً بين حين وآخر.. إذ ندخل إلى غرفة من غرف البيت لسبب ما.. لكنا ننسى سبب دخولنا.. فنقف للحظة ونحاول أن نتذكر.. والواقع أن سبب النسيان يكمن في أن عبور الباب يرمز في عقلنا الباطن إلى نهاية حدث وبداية حدث آخر.. الأمر الذي يحذف بعض الذكريات القديمة (رغبتنا في الدخول إلى الغرفة) ليفتح المجال أمام ذكريات جديدة حين ندخل الغرفة فعلياً.

كنت أتمنى أن يأخذوني إلى طفولتي.. إلى بيت العائلة الجميل حيث الشعور بالأمان.. وحين كان كل شيء أجمل.. لتنهمر دموعي مرة أخرى.. إنها ليلة كئيبة كما هو واضح.. وبسبب هذه الكآبة.. شعرت أن بقائي في عالمي الخاص أفضل.. وأنني يجب ألا أقاوم تلك الرغبة الملحة بالنوم.. فاستسلمت تماماً لمشاعري.. وبدأت أغمض عيني تدريجياً.. لأنام أخيراً.

الخاتمة

كنت مشدوهاً مصدوماً.. وقد اغرورقت عيناي بالدموع التي انهمرت فجأة وأنا أرى ذلك الرجل الذي يجلس أمامي وهو يجهش بدوره في البكاء.. فقد تعلمت منذ زمن.. ومن قبل دخولي كلية الطب.. ألا أقاطع من يبكي.. حتى لو بكلمات المساندة والمواساة.. إنّ وجودي واحترامي لدموعه أفضل مواساة له من وجهة نظري -كإنسان وليس كطبيب- وهذا ما جعلني أسكت طويلاً منتظراً منه تمالك أنفاسه.. لأقول متألماً:

- لا أعتقد أنني سأستمع إلى شيء كهذا في حياتي.. بل ولا أظن أن شيئاً كهذا قد حدث لأي إنسان من قبل.. يا إلهي.. هذا مؤلم.. مؤلم جداً يا (أحمد).. أعلم أنك تطلب مساعدتي لتجاوز هذه المحنة.. لكنني بشر في النهاية.. بكل تأكيد موقف كهذا سيهزني كثيراً.

رد (أحمد) باكياً:

- هل فهمت القصة يا دكتور؟!.. لقد كانت زوجتي تسجل مذكراتها صوتياً وهي في سيارتها.. قبل أن ترتكب ذلك الحادث الذي حطم سيارتها وجعلها محشورة بين المقعد

والمقود.. فعجز رجال الإطفاء عن إخراجها.. لتظل في مكانها تنزف وتنزف والتسجيل ما زال مستمراً.. مما جعلها تهلوس وتتحدث عن ذكرياتها لتُدخل في سياقها ما كانت تراه وقت احتضارها.. إلى أن فارقت الحياة.

قلت بألم مؤكداً على كلامه:

- رحمها الله.. لقد كانت تتحدث بعقلانية في البداية.. إلى أن حدث الاصطدام وانقلبت السيارة.. حينها صمتت قليلاً.. ثم بدأت تهلوس من قوة الإصابات والنزيف الداخلي.. لتختلط عليها ذكرياتها الحقيقية مع ما كانت تراه في لحظات احتضارها.. وتصنع من كل هذا قصة مبعثرة وسط أصوات رجال الإطفاء والإسعاف وهم يحاولون إنقاذها.. خاصة وأن لحظات احتضارها طالت بعض الشيء قبل أن تفارق الحياة.. إن القصة مفهومة لمن يستمع إلى التسجيل الصوتي.

لم يرد (أحمد).. بل ظل ينظر إلى الأرض متأثراً والدموع تنهمر من عينيه بلا توقف.. لأكمل:

- حتى كلامها حين ذكرت أنّ ستارة الغرفة كانت مغلقة سوى فتحة قليلة سمحت لها برؤية من ظنته (سليمان)

في المرة الأولى.. فالواقع أنه لم تكن توجد ستارة أصلاً.. بل هي كسور زجاج سيارتها التي منعتها من الرؤية سوى من مكان محدد.. تماماً كما يحدث حين ننظر بصعوبة عبر الزجاج المكسور.. المسكينة كانت تنظر عبر زجاج سيارتها الأمامي المهشَّم وقد اختلطت عليها الوقائع مع ذكريات حياتها.. فظنت أن زجاج سيارتها هو نافذة غرفتها.. في حين أن الكائنات الملائكية -كما وصفتهم- لم يكونوا سوى المسعفين الذين ظلوا ينظرون إليها من زجاج سيارتها الأمامي بإشفاق وحزن عاجزين عن مساعدتها.. منتظرين رجال الإطفاء علهم يتمكنون من إخراج جسدها المحشور في سيارتها.

راح يمسح دموعه وهو يغمغم:

- أنا لا أفهم لماذا استمرت في تسجيل مذكراتها حتى بعد الحادث، ولغاية اللحظات الأخيرة من حياتها.

قلت بألم:

- كما ذكرت لك.. إنها من آثار الهلوسة التي أفقدتها القدرة على فهم ما يحدث حولها بصورة واضحة.. لقد كانت تهذي وهي بين الحياة والموت.

كان (أحمد) منهاراً تماماً وهو يشعر بالندم على كل لحظة أغضب فيها زوجته.. ليسألني بعدها:

- ماذا عن (سليمان)؟!.. حبيبها الأول الذي عرفَتْهُ قبل زواجنا.. كيف كانت تراه؟!

قلت مفكراً:

- لا أعلم.. ربما يشبه أحد المسعفين الذين كانوا ينظرون إليها عبر النافذة.. فظنت أنه هو.. أو ربما زارها فعلياً من عالم الموتى.. يستحيل فهم هذه النقطة.

لم يرد على كلامي.. فسألته بحزن:

- كيف حال طفلتيك بعد علمهما برحيل والدتهما؟!.

رد وهو يمسح دموعه وأنفه الذي احمرَّ تماماً من فرط البكاء:

- ما زالتا تعيشان صدمة وفاة والدتهما.. إذ لم يمر على الحادث أكثر من أسبوعين يا دكتور.. إنني أقضي كل وقتي تقريباً معهما.. وقد أقسمت أن أمنحهما كل اهتمامي.. وأن أمارس دور الأم والأب معاً.. حتى إنّ شقيقتي التي تخرجت حديثاً من الجامعة ولم تعثر على وظيفة بعد.. جاءت لتسكن معي كي تساعدني في تربيتهما.. فهما

تُحبّانها كثيراً.. لكن هذا لم يكن كافياً بالنسبة لي.. فقد كنت بحاجة شديدة إلى الانهيار أمام شخص ما.. ولم أجد أفضل من طبيب نفسي يستمع إلي ويفهمني.. لهذا أردتك أيضاً أن تستمع إلى تسجيل زوجتي الصوتي كاملاً.. حتى تستوعب حجم مأساتي.. وشعوري القاتل بالذنب.

سألته بحزن:

- كيف علمت بأمر تسجيل زوجتك الصوتي في هاتفها؟!.

رد بألم:

- لقد كانت حاجياتها في كيس أخذته من المحقق في المستشفى، بعد أن قام رجال الشرطة بتسليمه له.. واكتشفتُ بالصدفة أنّ تسجيل الهاتف الصوتي ما زال يعمل وقد امتدّ لساعات طويلة جداً.. فعلمت أن زوجتي -رحمها الله- كانت تسجل شيئاً ما.. و.. وصعقت حين سمعت صوتها وهو تسرد مذكراتها وتستمر في الحديث حتى أثناء احتضارها.. لقد حفظت كل كلمة في هذا التسجيل من كثرة استماعي له.. إنني أفتقد زوجتي بشدة يا دكتور.. ليتني أستطيع الوقوع عند قدميها لأطلب منها الصفح عني.

بالطبع.. إنه يرى زوجته بقلبه الآن.. وحين ترى المرء بقلبك.. ستختفي كل عيوبه.. فقلت بحزن دون التعقيب على كلامه:

- إذا سمعَ أي شخص هذا التسجيل ولم يعرفْ ظروفه.. لاستغربَ كثيراً من كلام زوجتك.. ولظن القصة تتعلق بالجن أو الأشباح.

لم يرد.. فظللنا صامتيْن لفترة.. قبل أن أقترح على (أحمد) أن يزورني مرة أخرى إذا شعر بالرغبة في التحدث.. أو حتى إذا أراد علاجاً لحالته النفسية.. ليهز رأسه ممتناً وهو ينهض من مكانه وينظر إلى الفراغ مغمغماً بكلمات مؤثرة راجياً زوجته أن تسامحه.. مما هيَّج مشاعري كثيراً، وجعلني أنهض من مكتبي تجاهه كي أحتضنه.. نعم.. كانت لحظات مؤثرة جداً.. وواحدة من القصص التي لا أعرف كيف أصفها سوى أنها مؤلمة.. خاصة إذا تذكرنا أننا كنا نستمع خلالها إلى تسجيل صوتي لسيدة يتخلله صوت الحادث وصراخها وقوة الارتطام.. ليتغير صوتها تدريجياً إلى الهمس الناتج عن قوة إصاباتها.. حيث ظلت تحتضر لفترة ليست بالقصيرة.. إلى أن فارقت الحياة.

لقد أصابني الإحساس بالتعب الشديد بعد خروج (أحمد).. فقصص كهذه مرهقة ذهنياً حين تلتقي بأصحابها وتلمس معاناتهم بنفسك.. ليتني أستطيع أن أرتاح قليلاً من هذه الأهوال التي تصل إلى مسامعي.. لكن.. ليلة واحدة لن تكفي للراحة مع الأسف.. إذا كانت كل الليالي السابقة تطاردك.. تماماً كما حدث لبطلة قصتنا وهي تسترجع كل أيامها الماضية بحلوها ومرها أثناء لحظات احتضارها.. حتى إنني عجزت عن تسمية الراوي الحقيقي لهذه القصة.. هل كان (أحمد) نفسه؟.. أم زوجته رحمها الله؟.. فقررت استخدام علامات التعجب.. إلا أنّ ما يهمني في كل الأحوال أن تصل إليك القصة كاملة بكل تفاصيلها التي تحدثت عنها الزوجة وهي تنظر عبر زجاج سيارتها الأمامي.. والذي ظنّته مجرد نافذة.. نافذة غرفتها.

مشكلة سخيفة جداً

تحكيها: (أنوار)

يوم (الأربعاء).. منذ طفولتي أعشق هذا اليوم.. إنه الانتظار الجميل لعطلة نهاية الأسبوع.. وربما هو الحنين إلى تلك الأيام حين كنت أترقب مجلة (ماجد) بفارغ الصبر.

كنت في مزاج رائق أثناء الطريق عائداً إلى شقتي بعد انتهاء ساعات عملي في المستشفى.. حين اتصلت بي شقيقتي التي تصغرني بعامين تقريباً.. وأخبرتني أنّ إحدى صديقاتها تعاني مشكلة ما وتود التحدث إليّ للضرورة.. لكني اعتذرتُ منها وأخبرتها صراحة إن كانت مشكلة صديقتها تتعلق بخلافات مع زوجها.. فإنّ عليها التحدث إلى استشاري نفسي أو إلى أحد المختصين بالعلاقات الأسرية.. كون هذا ليس عمل الطبيب النفسي.

إلا أنّ شقيقتي أصرت على أن الأمر يحتاج مشورتي.. وأنني قد أتفق معها في ذلك حين أعرف المشكلة.. كما أنها لا تريدني أن أخذلها أمام صديقتها.. لذا.. وافقت على مضض.. غير عالم أنني على أعتاب حالة نادرة جديدة.. وقصة سأعيش تفاصيلها خارج أسوار المستشفى.. وهو أمر نادر للغاية كما يعلم كل من قرأ مذكراتي السابقة.

ذهبت في اليوم المحدد إلى بيت شقيقتي في منطقة (قرطبة).. حيث كانت صديقتها -التي عرفت أن اسمها (أنوار)- تجلس معها في غرفة المعيشة تنتظر وصولي على أحر من الجمر كما بدا عليها.. فألقيت عليهما التحية، وتبادلنا بعض عبارات المجاملة.. ثم:

- تعالوا لتحية خالكم.. إنه هنا.

قالتها شقيقتي بصوت مرتفع.. ليأتي أولادها بمختلف أعمارهم.. والذين رحبوا بي بخجل شديد كوني لا أراهم كثيراً للأسف.. مما أشعرني بشيء من الألم نتيجة هذا التباعد الاجتماعي الذي نتحمل جميعنا مسؤوليته.. متذكراً كيف كانت الحياة في طفولتي، وكيف كانت للعائلة قيمة حقيقية.

ربما هي التكنولوجيا.. ربما هي وسائل التواصل الاجتماعي التي تخدعك وتجعلك تشعر أنك على تواصل دائم مع أقاربك.. لكنك تكتشف حين تراهم أنّ التواصل الإلكتروني هذا لم يكن تواصلاً بالمعنى الحقيقي.. أعرف أنّ في كلامي نوعاً من التناقض كوني أعشق عزلتي وأفضل دوماً الإبقاء على مسافة محددة من أقاربي.. إلا أنّه لا بد من الحنين إلى الماضي بين حين وآخر.. إنه من الأشياء الغريزية عند الإنسان.. و:

- أعتقد أنها المرة الثانية التي تزورني فيها يا دكتور.

أعادتني شقيقتي إلى عالمنا حين قالت تلك العبارة بشيء من التهكم.. فغمغمت مجاملاً:

- إنه العمل يا عزيزتي.. مناوبات العمل في المستشفى تلتهم وقتي.

ردت ضاحكة بخبث:

- إنني أسكن هذا البيت مع زوجي وأطفالي منذ 8 سنوات.. لا يوجد إنسان في العالم ينشغل عن زيارة شقيقته طوال تلك السنوات.

لم أجد ما أرد به عليها.. فسألتها عن حال زوجها.. وأعتقد أنها فهمت أنني لا أريد الخوض في سبب غيابي الدائم.. خاصة مع وجود صديقتها التي كانت تحدق بي بطريقة غريبة.. وكأنها تنتظر مني التحدث إليها.. ويبدو أن شقيقتي أيضاً لم ترغب بإضاعة المزيد من الوقت في المجاملات.. إذ أجابت سريعاً أنّ زوجها بخير، وأنه خرج لإنجاز بعض الالتزامات العائلية.. كما طلبت من أطفالها الذهاب إلى غرفهم.

عندها فقط.. التفتتْ إلى (أنوار) لتقول:

- ها هو شقيقي.. تستطيعين التحدث إليه.. هل ترغبين أن أتركك لوحدك معه؟!.

ردت (أنوار) باستنكار:

- ولماذا؟!.. أنت تعرفين القصة كاملة.

ابتسمت شقيقتي.. وأشارت إليها كي تتحدث.. لتقول (أنوار) وهي تعدل جلستها وتلتفت إليّ:

- دكتور.. إنني أمر بمشكلة سخيفة جداً.. لكنها تلتهم أعصابي التهاماً وتكاد أن تدمر حياتي!!.

نظرتُ إليها مستغرباً من هذه المقدمة الغريبة!!.. ففي كل مرة يجلس فيها أحدهم أمامي في المستشفى.. يتحدث عن نفسه وكأن مشكلته هي مشكلة مجرّتنا ذاتها.. وأنّ الكرة الأرضية ستتوقف عن الدوران إذا عجزت عن مساعدته.. وربما لا ألوم الناس على ذلك.. إنها طبيعة البشر.. هذا ما قلته لنفسي وأنا أنظر إلى (أنوار) منتظراً منها أن تكمل.. لتقول:

- المشكلة بدأت منذ بضعة شهور.. حين عاد زوجي من الخارج مساء ذات يوم بعد أن قضى قرابة الساعتين في

ممارسة رياضة المشي.. والعرق يغطي جسده بالكامل بسبب حرارة الجو.. حيث كان ممسكاً بنظارة قديمة إلى حد ما، وقد أُتلفَ إطارها كثيراً.. في حين انتُزِعت إحدى عدساتها من مكانها.. وبقيت العدسة الأخرى في أسوأ حال ممكن.. ليخبرني أنه عثر على تلك النظارة أثناء ممارسته للرياضة.. ويبدو أن أحدهم فقدها هناك.

رأيت شقيقتي تبتسم وهي تهز رأسها كناية عن سخافة الأمر.. لتكمل (أنوار):

- ضحكت وأنا أخبر زوجي أن النظارة قديمة وتالفة.. ومن المستحيل أنّ صاحبها يبحث عنها.. بل من المؤكد أنه اشترى غيرها الآن.. لكنّ كلامي لم يعجبه.. إذ ذهب ممتعضاً إلى الحمام ليغيب بعض الوقت.. قبل أن يخرج وقد بذل جهداً كبيراً في محاولة تنظيف إطار النظارة والعدسة الوحيدة المتبقية.. ثم أخبرني بجدية أنه بحث عن العدسة الأخرى في كل مكان حيث وجد النظارة دون أن يعثر عليها.. وأنه سيأخذ الإطار إلى أحد المختصين ليقوم بتنظيفه وتصليحه بطريقة احترافية.

سألتها باستغراب:

- ما سر هذا الاهتمام الغريب من زوجك بنظارة تالفة؟!.

ردت بحرقة:

- لهذا طلبتُ أن أراك يا دكتور.. أريدك أن تجد لي حلّاً.. فالأمور ستتعقد كثيراً فيما بعد.

سألتُ شقيقتي مصدوماً:

- هل هذه المشكلة التي طلبتِ حضوري من أجلها؟!.

لم ترد.. بل نظرتْ إلى (أنوار) وهي تحثها على الاستمرار.. لتكمل الأخيرة:

- هكذا كانت ردت فعلي يومها.. الصدمة والاستغراب من سخافة الأمر.. حتى إنني طلبت من زوجي -بلا مبالاة- أن يرمي النظارة في سلة المهملات وينسى الأمر.. لكنه نظر إليّ بحدة.. وكأن كلامي أساء إليه بصورة أو بأخرى.. حتى إنهُ اتهمني بعدم الاكتراث لمشاكل الآخرين.

قلت مبتسماً:

- المعذرة.. لكن يبدو لي أن زوجك كان يبحث عن وسيلة للشجار معك.

هزت رأسها نفياً بقوة وهي تؤكد:

- أبداً يا دكتور.. نحن متزوجان منذ 12 سنة تقريباً.. ولطالما كانت علاقتنا مستقرة هادئة.. وحتى لو لم تكن كذلك.. فأي سخف هذا الذي يجعله يفتعل شجاراً من أجل نظارة قديمة عثر عليها في الشارع؟!.

قلت مستغرباً:

- ظننتكِ قلت إنّه عثر على النظارة في ممر للمشاة.

ردت بحدة:

- لا يهم أين عثر عليها.. بل اهتمامه غير المعقول بشيء سخيف كهذا.

احترمتُ حدة أعصابها التي أشعرتْ شقيقتي بالحرج.. لتتدخل الأخيرة وهي تقول مهدئة:

- أصدقكَ القول يا دكتور أنني أتابع المشكلة مع (أنوار) منذ بدايتها تقريباً.. فهي أقرب صديقاتي إليّ.. لا أنكر أنني انفجرتُ ضاحكة حين أخبرَتْني بالأمر في المرة الأولى.. وظننتُ أيضاً أنّ زوجها يريد افتعال مشكلة ما.. لكن المرء لا يفتعل مشكلة بهذا السخف مهما كان غبياً.

سكتُّ موافقاً كلامها بالطبع.. ونظرتُ إلى (أنوار) لتكمل وهي تحاول التحدث بهدوء مرة أخرى:

- أعتذر عن عصبيّتي يا دكتور.. لقد كانت الشهور القليلة الماضية عصيبة جداً.. فكل ما ذكرته لك مجرد البداية فحسب.. فقد قام زوجي بعد ذلك بالتقاط صور عديدة للنظارة.. ثم راح ينشرها في حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي.. ويناشد الناس العثور على العدسة الثانية.. مع مكافأة مالية لمن يفعل!!.

سألتُ (أنوار) صراحة دون التعقيب على كلامها الأخير:

- هل يتعاطى زوجك أية مواد مخدرة؟!.. هل يشرب الخمر؟!.. هل يملك ملفاً في الطب النفسي؟!.

قالت وهي تطرق برأسها أرضاً:

- كنت أتوقع أسئلة كهذه.. لكن دعني أؤكد لك أنّ زوجي رجل مستقيم لا يفعل أيّاً من الأشياء التي ذكرتَها.. ولا يعاني من أيّة مشاكل نفسية.

سألتُها مفكراً باحثاً عن تفسير لما سمعته حتى الآن:

- ربما يعاني زوجك من أحد اضطرابات (الوسواس القهري)*.. أخبريني.. هل لديه عادة الاحتفاظ بالمقتنيات القديمة بشكل ملفت للنظر؟!.

هزت رأسها نفياً أيضاً.. حسناً.. هذا على الأقل يلغي فكرة اضطراب (الاكتناز القهري)**.. لا بأس.. طلبتُ منها أن تكمل.. ثم:

- لَك أن تتخيل ردود الأفعال التي وصلته على وسائل التواصل الاجتماعي.. فقد انهالت عليه رسائل السخرية.. وهو يتشاجر مع هذا ويشتم ذاك.. ويرجو الناس أن

---

* (الوسواس القهري) (Obsessive Compulsive Disorder) اضطراب نفسي يشعر خلاله المرء أن فكرة معينة تلازمه دائماً وتحتل جزءاً من وعيه بشكل مستمر.. فتجعله عاجزاً عن التخلص منها وعن التفكير بغيرها.. مما يسبب له الإرهاق النفسي والذهني.. مثل الحاجة إلى تفقد الأشياء بشكل مبالغ به.. كإغلاق الصنبور بطريقة محكمة أو تفقد الكهرباء.. أو تفحص قفل الباب والشبابيك.. أو حتى ممارسة العبادات بشكل متكرر خوفاً من التقصير غير المتعمد.. إلخ من قائمة طويلة جداً تتعلق بممارساتنا اليومية.. فيؤثر ذلك سلباً على حياته.. ويصبح عصبياً تجاه مواقف عادية لا تستحق الانفعال.. علماً بأن أسباب الوسواس القهري قد تكون بفعل عوامل وراثية.. أو عوامل نفسية تتعلق بالتعرض إلى إساءة المعاملة في مرحلة الطفولة.. أو المرور بمواقف قاسية لفترات طويلة.

** (الاكتناز القهري) (Compulsive Hoarding) اضطراب نفسي تتراوح حدته من شخص إلى آخر.. ويعد أحد اضطرابات (الوسواس القهري).. يواجهُ بسببه المرء صعوبة في اتخاذ القرار بشأن التخلص من مقتنياته الشخصية أو المقتنيات القديمة غير الضرورية.. مما يجعلها تتكدس لديه بأعداد هائلة.. حيث يسيطر عليه الشعور أنه سيحتاج إليها في وقت لاحق.

يساعدوه في العثور على من يمتلك تلك النظارة.. لعل العدسة التالفة ما زالت معه.

قلت في حيرة شديدة:

- بصراحة.. المشكلة تافهة جداً.. تافهة إلى درجة الغرابة.. فما الذي يجعل زوجك يهتم بالأمر بهذه الصورة؟!.

لم تجب عن السؤال بالطبع.. فهي تنتظر الإجابة مني أنا.. لذا أكملت مؤيدة وبحنق:

- وقد نفّذ ما أخبرني به.. حين أخذ النظارة اللعينة هذه إلى أكثر من مكان كي يقوموا بإصلاح إطارها من الاعوجاج.. مع تنظيفه بمحلول كيميائي خاص.. المهم أنه عاد بالنظارة إلى البيت، فبدا إطارها أفضل بكثير مما كان عليه.. إلا أنه أبقى على العدسة القديمة.. ولم يضع أية عدسة جديدة بدل المفقودة.

لم أردّ.. إذ لم أجد ما أقوله.. لتستطرد هي:

- لقد سألته صراحة.. ماذا لو عثر على صاحب النظارة، لكنّ العدسة المفقودة ليست معه مثلاً؟!.. أو أنه رمى النظارة متعمداً بعد أن تعرضت للتلف.. فهذا هو المرجح أصلاً.. إلا أنه اتهمني بالتشاؤم وقال أن عليّ ألا أفقد الأمل..

تخيّل ذلك.. كان من الواضح أنه أصبح مهووساً بالعثور على صاحب النظارة.

قلت مستغرباً وسط نظرات شقيقتي الحائرة، التي تعرف كل هذه التفاصيل كما يبدو:

- الأمر وصل إلى الهوس بالفعل.. لكن لماذا؟!.. ولأي غرض؟!.

ضربت كفّاً بكف كما يفعل بعض الرجال كناية عن الجهل والاستغراب.. وهو ما لم أر أية فتاة تفعله من قبل.. ثم قالت:

- ليت الأمر توقف عند هذا الحد.. فقد تسبّب لي بإحراج كبير حين خرجتُ معه ذات يوم تلبية لدعوة أحد أبناء عمومتي بمناسبة حصوله على شهادة دراسية عليا.. إذ ظل زوجي طوال الطريق يتحدث حول بحثه المستمر عن العدسة المفقودة.. حتى إنني صرخت في وجهه بعصبية للمرة الأولى طوال سنوات زواجنا.. وأنا أطلب منه ألا يتحدث عن تلك النظارة اللعينة أمامي.. وأن يتركنا نستمتع باللقاء العائلي.. فصمتَ على مضض.. لكني فوجئت به يخرج النظارة من جيبه مباشرة بعد أن وصلنا وألقينا التحية على الجميع.. ليسأل أقاربنا إن كان أحدهم يعرف صاحبها.. وسط نظرات استغرابهم!.

لم أتمكن من منع نفسي من الضحك.. ويبدو أنها توقعت ردة فعلي هذه.. لذا لم تغضب.. بل زفرت بحدة وهي تقول بانفعال:

- يا إلهي.. دكتور!!.. لقد كدت أذوب خجلاً من تصرفه هذا.. وربما لو نهض ورقص أمامهم لكان الأمر أهون بالنسبة لي.. أتذكّر أنّ أقاربي حاولوا مجاراته احتراماً له.. وراح كل منهم يقترح شيئاً.. إلا أنه ظل يدافع عن موقفه.. ويؤكد أنه لن يتوقف إلى أن يعثر على صاحب النظارة لعل العدسة المفقودة ما تزال بحوزته.. حتى إنّ أحد الأقارب سأله عن الفائدة المرجوة مما يفعله.. ليردّ زوجي بأن هذا سيريح ضميره كثيراً.. وهو ما قاله لي حين سألته عن الأمر ذاته.. بل أنه غضب من عمتي المسكينة حين اقترحت عليه أن يشتري عدسة جديدة بدلا من المفقودة إذا كان الموضوع يهمه إلى هذا الحد.. إذ رد عليها بحدة أنّ في هذا خيانة للأمانة!!.

قلت مبهوتاً:

- هذا غير معقول!!.. لقد صنع من نفسه مهرجاً أمام الجميع.

ردت بألم:

- بالضبط.. أنت الآن تعرف جيداً حجم المشكلة.

سألتها:

- لماذا لم تتفقِي مع شخص ما كي يتصل بزوجك ويخبره أنه صاحب النظارة.. وأنّ العدسة المفقودة ليست بحوزته مثلاً.. على أن يأخذ النظارة من زوجك وينتهي الأمر؟!.

غمغمت شقيقتي:

- هذا ما اقترحتهُ عليها.. لكنَّ الحل لم يكن مجدياً.

نظرتُ إلى (أنوار) مستفهماً.. لتقول مؤيدة:

- هو ما قالته شقيقتك.. فقد استمعتُ إلى نصيحتها بعد شهور قليلة لم يتوقف خلالها زوجي أبداً عن الحديث حول الأمر طوال الوقت.. حتى تشاجرنا في هذه الشهور أكثر مما تشاجرنا طوال سنوات زواجنا.

سألتها متوقعاً النتيجة:

- وهل نجحت الخطة؟!.

ردت بسخط:

- لقد طلبت من إحدى صديقاتي أن يتصل شقيقها بزوجي ليخبره أنّه صاحب النظارة وهو يرغب باستعادتها.. لكنّ العدسة المفقودة ليست معه.. فلا يمكن خداع زوجي بجلب عدسة جديدة كون الإطار لا يفارقه.. إذ يستحيل معرفة مقاس العدسة الصحيح من دون وجود الإطار كما تعلم.. وقد كنت شديدة الحذر حين أكدت على صديقتي ألا يعرف زوجي هوية شقيقها الحقيقية.. كي لا يكتشف الخدعة.

ضربت المقعد بقبضتها وهي تكمل:

- نفّذ شقيق صديقتي الخطة.. واتصلَ بزوجي بالفعل.. بل وحضر لزيارتنا ليقوم بدوره على أكمل وجه.. وهو يشكر زوجي كثيراً على حرصه واهتمامه، مؤكداً أنه سيشتري عدسة جديدة بدل تلك المفقودة.. فصدّق زوجي الخدعة.. وأخرج النظارة من جيبه وهو في حالة غريبة من الانهيار النفسي حين تأكد أنّ العدسة مفقودة.. حتى شعر للحظة أن لا جدوى من كل ما فعله طوال الشهور السابقة.

قلت وأنا أمط شفتي:

- لا أظنّ المشكلة انتهت عند هذا الحد.. وإلا لما كنا هنا!!.

ردت بلوعة:

- بالطبع.. فقد ظل زوجي مكتئباً لبضعة أيام وهو يفتقد وجود النظارة معه تارة.. وتارة أخرى يشعر بالأسف بعد فقدان الأمل في العثور على العدسة المفقودة.. المشكلة أنه اكتشفَ خدعتي يا دكتور!!.

ازدردتُ لعابي وكأنني أنا من يتحدث.. ربما من غرابة الموضوع وسخافته في نفس الوقت.. لم أتوقع للحظة أنّ موضوعاً كهذا قد يهدم أسرة بأكملها.. المهم أنّ (أنوار) أكملت:

- مع كل أسف.. سمعني زوجي أتحدث مع صديقتي ذات يوم حول الأمر.. ففهم أنّ لي يداً في الموضوع.. وبصراحة لم أجرؤ على مواجهة غضبه.. كانت المرة الأولى التي أراه فيها غاضباً بهذه الطريقة.. لذا صارحته بالحقيقة.. حينها انفجر صارخاً ووصفني بأبشع الأوصاف.. ثم تهجّم علي وصفعني قبل أن يطردني من البيت، وهو يهدد ويتوعد ويخبرني أنّ على صديقتي أن تعيد النظارة إليه.. وإلا ستندم.. صدّقني يا دكتور.. لم يجرحني بصفعته وكلامه فحسب.. بل كانت حباله الصوتية كالمشانق التي أعدمتْ علاقتنا.

قلت مبهوتاً:

- لو سمعَ أي إنسان هذا الكلام.. لظنّ أنكِ ارتكبتِ جريمة بحق زوجك.. هذا لا يصدق!.. وهل خرجتِ من البيت؟!.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

- نعم.. إنني أقيم الآن مع والديّ.. بعد أن طردني زوجي من البيت وأبعدني عن ابنتي التي ما زالت معه.. لأنه لا يثق بتربية أُم كاذبة على حد قوله.

سألتها مستفسراً:

- ألم تحاولي الدفاع عن نفسكِ على الأقل؟!.

أجابت باكية:

- ماذا سأقول؟!.. هل أخبره أنّ غضبه لا معنى له؟!.. وأنّ القضية بأكملها سخيفة؟!.. وأن لا قصة هناك أصلاً؟!.. لقد فعلتُ هذا عشرات المرات دون جدوى.

سكتنا طويلاً.. وقد علمتُ أنّ القصة انتهت عند هذا الحد.. وأن (أنوار) تطلب مني تفسيراً لسلوك زوجها الغريب هذا.. والواقع أنّ الأمر كان بمنتهى الصعوبة.. فلا أحد يصاب بجنون مفاجئ هكذا.. ولا أحد يجعل من نفسه أضحوكة

أمام الناس بهذه الطريقة مهما كان الدافع.. وما هو الدافع أصلاً؟!.. يستحيل أن يفعل كل هذا من أجل العثور على عدسة مفقودة لنظارة.

سألتني شقيقتي:

- أعرف أنك لن تأخذ كلامي بجدية.. لكن.. هل تعتقد أنّ للأمر علاقة بالحسد أو السحر؟!.

نعم يا عزيزتي.. لن آخذ كلامك بجدية.. لم أقلها بالطبع.. لكني سكتُّ ولم أردّ.. بل نهضتُّ من مكاني معتذراً لأنّ عليّ الذهاب والتفكير بعض الوقت.. فلا يمكن العثور على إجابات فورية لقصة غريبة كهذه.. ثم خرجتُ أخيراً بعد أن حصلت على رقم هاتف (أنوار).. مع الوعد أنني سأتصل فيما لو طرأت على ذهني بعض الأسئلة التي قد تساعدني إجاباتُها على فهم ما يجري خلف الكواليس -إن كانت هناك كواليس لهذه القصة أصلاً- ولا أنسى ذكر أنني كتبتُ معظم الكلام الذي سمعته من (أنوار).. هذه عادتي كطبيب مع كل حالة تزورني كما ذكرت مراراً.. وقد أخذتُ تلك العادة معي إلى بيت شقيقتي كوني أمارس مهنتي خارج أسوار المستشفى هذه المرة.

خلال اليومين التاليين.. انشغلت كثيراً في عملي.. وبصراحة.. اضطررت إلى ركن مشكلة (أنوار) جانباً بعض الوقت.. إلا أنّ شقيقتي اتصلت بي وهي ترجوني ألا أنسى صديقتها المسكينة المعلقة في بيت عائلتها.. فهي تنتظر الحل مني أنا وتراني أملها الأخير.. خاصة وأنّ زوجها رفض تماماً وساطات والديها وأشقائها.. وأنه لم يتواصل معها منذ طردها من البيت سوى مرة واحدة هددها فيها بالقتل إن لم تُرجع صديقتها النظارة.. علماً بأنّ صديقتها هذه تخلصت من النظارة في سلة المهملات بعد أن ظنت أنّ القصة انتهت.. أي أنّ حياة (أنوار) الزوجية -وربما حياة صديقتها أيضاً- على المحك الآن لو أردنا الدقة.. فلا أحد يعلم إلى أي مدى سيذهب زوجها بجنونه الغريب هذا.

اتصلتُ بـ(أنوار) يومها لمعرفة المزيد من التفاصيل عن زوجها.. علّني أصل إلى نتيجة ما.. حيث سألتها عن طفولته.. وعن ظروفه المادية والعائلية وعن كل ما يتعلق بحياته.. فباتت تتحدث عنه بشكل عام.. إلى أن وصلَت عند نقطة محددة أثارت فضولي كثيراً.. حتى إنني سألتها بشيء من العتب عن سبب عدم ذكرها لتلك النقطة من قبل.. لتجيب مدافعة أنها لم ترَ أي رابط بين الأمرين.. ما الذي أخبرتني به تحديداً؟!.. ستعرفون بعد قليل.

جلست في الأيام القليلة التالية أحلل المشكلة بالكامل، وأطرح التساؤلات واحداً تلو الآخر.. وأحاول العثور على سبب منطقي وعقلاني خلف تصرفات زوجها مؤخراً.. فالمشكلة سخيفة جداً دون شك كما علمنا.. لكن الزوج يتعامل معها على أنها مسألة حياة أو موت.. لماذا؟!.. أعرف أنّ هناك قصصاً كثيرة لأشخاص تصرفوا فجأة بطريقة جنونية.. أتذكر أنني قرأت ذات مرة عن شرطي كوري قام بارتكاب جرائم قتل جماعية خلال ليلة واحدة في عام 1982.. راح ضحيتها 56 قتيلاً مع عشرات الجرحى.. قبل أن يقدم على الانتحار.. فقط لأنه غضب من حبيبته التي تسببت في إيقاظه من النوم عندما قتلت ذبابة كانت تقف على صدره*.. نعم.. بعض البشر قد يتصرفون بطريقة غريبة أحياناً.. لكن لا أظن الأمر مشابهاً هنا.

ظللتُ أفكر وأفكر لساعات طويلة في تلك الفترة محاولاً العثور على إجابة لهذا اللغز.. فأمسك بنظارتي التي أرتديها بين الحين والآخر.. وأنظر إليها بشرود.. وأتذكر المعلومة التي عرفتها مؤخراً عن الزوج والتي لم أذكرها لكم بعد.. هنا فقط

---

* حادثة حقيقية هزت الرأي العام الكوري آنذاك.. وتعد واحدة من أكثر جرائم القتل الجماعي دموية التي ارتُكِبت على يد شخص واحد في التاريخ.. وهو الشرطي (وو بوم-كون) (Woo Bum-Kon).

ظهر ذلك المصطلح في ذهني.. قد يكون هو كلمة السر فيما يحدث.. لستُ متأكداً.. لكنّ الأمر يستحق التجربة.. ولو كنت مخطئاً.. لن أخسر شيئاً سوى بعض الحرج الذي سيزول مع مرور الوقت.. أما لو كانت نظريتي صحيحة.. فسيعني ذلك إنقاذ أسرة من التفكك.. وهذا ما جعلني أتصل بـ(أنوار) في اليوم التالي.. وأطلب منها أن تأخذني إلى بيت زوجها في منطقة (السلام) كما علمتُ منها.. ومن دون أن أخبرها بأية تفاصيل.

التقيت بها في الموعد المحدد عند مواقف سيارات البيت.. وهناك طلبت منها أن تقف خلفي وتترك الأمر لي.. وألا تتحدث مهما تعرضت للإهانة من قبل زوجها.. ثم قرعتُ الجرس.. لأسمعَ صوت الخادمة عبر جهاز المناداة تسألني عن هويتي.. فطلبتُ منها التحدث مع صاحب البيت.. لم أنتظر كثيراً.. إذ سمعت صوت الزوج يسألني باحترام عن هويتي.. لأخبره أنني الدكتور (....).. وهذا لن يعني له أي شيء بالطبع كونه لا يعرفني أصلاً.. لكني طلبت التحدث معه للضرورة القصوى.. ليقفل جهاز المناداة على أن يخرج عند الباب لمقابلتي.

كان انطباعي الأول عنه أنه يحمل ملامح طفولية تدل على طيبة القلب.. لكنه تجهّم فجأة حين رأى (أنوار).. وطلب منها بحدّة أن تعود إلى بيت أهلها.. وألا يراها أبداً من دون النظارة.. أو ستصلها ورقة الطلاق خلال الأيام القليلة القادمة.. إلا أنني هدأت من روعه بلطف.. وطلبت التحدث إليه في الداخل.. وادّعيتُ أنّ زوجته برفقتي بعد موافقة والدها.. كما أقسمتُ له أنني لست هنا لأطلب منه إرجاع زوجته.. بل سأتحدث في موضوع آخر تماماً.. ويبدو أن الفضول جعله يرضخ ويوافق.

جلسنا في غرفة المعيشة.. والزوج يحدق بي بنفاد صبر منتظراً مني أن أتحدث.. فبدأ التوتر يسيطر عليّ.. لأنني لا أعلم مدى صحة استنتاجي.. لكن ما أفكّر فيه هو التفسير الوحيد الذي يفرضه العلم.. لذا أطلقت زفرة.. وحسمت أمري.. لأقول للزوج بهدوء:

- أنتَ لديك ابنة اسمها (قمر)، كما علمت من زوجتك.

لم يرد.. بل كان ينتظر الكلام الأهم.. لذا قلت بتركيز شديد:

- أريد أن أطرح عليك سؤالاً هاماً للغاية.. هل سمعت يوماً

عن التجربة الشهيرة للعالم الروسي (بافلوف)* مع الجرس والكلاب؟!.

بدت الحيرة على وجهه ووجه زوجته.. ثم أجاب بامتعاض:

- نعم سمعت عنها.. ادخل في صلب الموضوع لو سمحت.

قلت بهدوء:

- أريدك أن تستعرض في ذهنك تجربة (بافلوف) مرة أخرى.. فهذا سيفسر لك سر اهتمامك الشديد بالنظارة، وبحثك عن العدسة المفقودة.

ظلّ ينظر إليّ منتظراً توضيحاً أكثر لكلامي.. فأكملت:

- ستفهم لو أخبرتك أن المشكلة التي شغلت ذهنك طوال الشهور الماضية لم تكن تتعلق بالنظارة أبداً.. بل تتعلق بتوءم (قمر).. ابنتك الأخرى (سمر) التي توفيت غرقاً

---

* في عام 1902 لاحظ العالم الروسي (إيفان بافلوف) (Ivan Pavlov) أن الكلاب التي يجري عليها تجاربه تبدأ بإفراز لعابها بمجرد رؤيتها للحارس الذي سيقدم لها الطعام.. وقد تطور الأمر إلى أن يسيل لعابها عند سماع خطوات الحارس التي تشعرها بقرب وصول طعامها.. مما أوحى لـ(بافلوف) بإجراء تجربة فريدة على الكلاب في العام التالي.. إذ راح يبقيها جائعة لفترة.. وفي كل مرة يرن الجرس قبل أن يحضر لها الطعام.. فلاحظ أن الكلاب تبدأ بإفراز اللعاب عند سماعها لرنين الجرس فقط.. وأطلق على هذا الأمر مصطلح (الانعكاس الشَّرطي) لأن رنين الجرس أصبح مثيراً شَرطياً -أي مرتبطاً- بالطعام.. وقد أُجريت بعدها دراسات عديدة على البشر بينت تأثر النفس البشرية أيضاً بـ(الانعكاس الشَّرطي) هذا.

حين كانت تسبح مع أقاربها في البحر.. حيث ترك هذا في نفسك أثراً بالغاً.. حتى إنكَ لم تتعاف من الصدمة رغم مرور أكثر من سنتين على الحادثة.. على عكس زوجتك التي تجاوزت الأمر.. ويبدو أنّ فقدك لابنتك خرج إلى سطحك النفسي -إن صحّ التعبير- حين عثرتَ على تلك النظارة.. فلا توجد نظارة في الدنيا بعدسة واحدة.. كل نظارات العالم بعدستين.. أي أنّ النظارة بعدسة واحدة تعتبر غير مكتملة كما نعلم جميعاً.. وعثورك على شيء غير مكتمل.. أيقظ لديك حس الألم على رحيل ابنتك (سمر) وأنت ترى أنّ حياة توءمها (قمر) غير مكتملة بدونها.. لقد ظنّ الجميع -بما فيهم أنت- أنك تشعر بالأسى والحزن لعدم عثورك على العدسة الثانية للنظارة.. لكنك في الواقع ما زلت تفتقد ابنتك المتوفاة.. إنه (الانعكاس الشَّرطي) الذي تحدث عنه (بافلوف).. هل فهمتني الآن؟!.

بدا الجمود التام على ملامحه.. في حين شعرت بـ(أنوار) تتنفس بسرعة كحال من اكتشف صدمة مروعة للتو.. ليقول الزوج بذهول:

- لكني.. لكني تجاوزت صدمة وفاة ابنتي.

قلت بحزم:

- لا فائدة من غض النظر وقلبك ما زال يحدّق.. فعقلك الباطن لم يتجاوز موتها بعد رغم أنك تحاول أن تعيش حياتك وتتناسى الأمر.. أعتقد أيضاً أنك مصاب بـ(اضطراب الحزن المعقَّد)*.

سكتنا جميعاً، وقد شعرت بارتياح لأنني في الطريق الصحيح إلى حل اللغز.. إلا أنني تجاوزت نشوة الانتصار والتفتُّ إلى الزوج وأنا أقول:

- يجب أن تزورني في المستشفى.. ستخضع لجلسات علاجية وتأخذ بعض الأدوية.. من الضروري أن تتجاوز

---

* (اضطراب الحزن المعقَّد) (Complicated Grief Disorder) عادة ما يحزن الإنسان كثيراً عند وفاة شخص قريب منه.. مما يجعله يمر بحالة من الألم والحرمان والفقد.. إلا أن هذه المشاعر تقل تدريجياً.. ويصبح بإمكانه العودة لممارسة حياته.. لكن هناك من ترهقهم مشاعر الفقد كثيراً.. ولا يشعرون بأي تحسن مع مرور الوقت.. حتى وإن بدوا لنا أنهم أفضل حالاً.. وهذا ما يعرف بـ(اضطراب الحزن المعقَّد).. حيث تكون المشاعر المؤلمة طويلة المدى وشديدة جداً يصعب التعافي منها.. مما يزيد من حالة الاكتئاب لدى المرء إلى درجة أن تراوده أفكار انتحارية.. مع خطر التعرض لأمراض بدنية أيضاً بسبب سوء الحالة النفسية.. كالإصابة بأمراض القلب أو ارتفاع ضغط الدم.. في حين قد يلجأ البعض إلى الإدمان على المواد المخدرة أو الكحوليات.. ويتم علاج هذا الاضطراب بالتحدث والفضفضة المستمرة مع مختص.. بالإضافة إلى تقديم الدعم النفسي من الأقارب والأصدقاء.. وتنفيذ تعليمات الطبيب النفسي ولو تطلّب الأمر تناول أدوية مضادة للاكتئاب.

صدمة وفاة (سمر) رحمها الله.. من أجل (قمر).. ومن أجل زوجتك.. بل ومن أجل نفسك.. تذكّر أنّ عقولنا نتاج تراكمات الماضي.. لكن.. بإمكاننا دوماً صنع تراكمات جديدة.

لم يرد.. بل بدا منكسراً، حزيناً، مصدوماً مما سمعه مني.. حتى إنّ (أنوار) نهضت لتحتضنه وقد شعرت بالأسى الشديد تجاهه.. لينفجر باكياً وهو يضع رأسه على كتف زوجته، ويطلب منها أن تسامحه على كل ما فعله.. أعتقد أنه اكتشف الحقيقة للتو في أعماقه حين أخرجتُها له إلى السطح.. أما أنا فقد سكتُّ تماماً من رهبة الموقف.. وأطرقتُ برأسي أرضاً منتظراً منه تفريغ شحنات الحزن هذه.. ثم رأيته ينهض من مكانه ويقبّل رأس زوجته، ويطلب منها مرة أخرى أن تغفر له، ويعدها أنه لن يمدّ يده عليها مرة أخرى أبداً.

وحين هدأ كل شيء.. ذهبت (أنوار) لتجلب لنا شيئاً نشربه احتفالاً بعودة الأمور إلى مجاريها.. ثم سألتني منبهرة:

- كيف توصلتَ إلى الحل؟!.. لم أتوقع أن يكون الأمر بهذه البساطة؟!.

قلت ببساطة أيضاً:

- إنه عملي.. فعلم النفس عموماً لا يبحث عن التفاصيل الصغيرة في حياة الإنسان.. بل التفاصيل الأصغر!!.. تذكري دوماً أنّ هناك أشياء كثيرة نبحث عنها في الخارج.. لكنها موجودة في داخلنا من دون أن نعلم.. هكذا هو (الانعكاس الشَّرطي).

ردت بأسى:

- لا أفهم كيف فاتني ربط الأمر بحادثة موت (سمر) رحمها الله.. ولا أفهم لماذا لم أتعرض أنا أيضاً لكل هذه الاضطرابات النفسية التي مرّ بها زوجي.. رغم حالة الحزن الشديدة التي مررتُ بها لفترة لم تكن بالقصيرة.

قلت متفهماً:

- الاقتراب المفرط مثل الابتعاد.. ففي الحالتين لن نرى الصورة جيداً.. كنتما بحاجة إلى مختص يرى الصورة من مكان مناسب.. وهذا ما فعلته أنا.. وكونكِ اجتزتِ صدمة موت (سمر).. فهذا لا يعني أنّ الأمر ذاته سينطبق على زوجك.. كثيرون من الناس يظنون أنّ الرجل أقوى دوماً من المرأة

من الناحية النفسية.. وهذا غير صحيح.. إذ لا توجد قاعدة عامة.. والحالات النفسية عند البشر تتفاوت.. بغض النظر إن كانوا ذكوراً أم إناثاً.

لم ترد.. بل ظلت تحدق بي بانبهار وكأنني قمت بمعجزة.. وربما لا ألومها على ذلك.. فحياتها وحياة أسرتها كانت على المحك.. قبل أن يتغير كل شيء في أقل من نصف الساعة لتعود المياه إلى مجاريها فجأة.. ويبدو أنّ الزوج شعر بأهمية ما فعلتُه من أجله.. إذ نهض ليحتضنني ويشكرني كثيراً.. لأخبره بدوري - وبتواضع حقيقي- أنّ هذا عملي في النهاية.. وأنّ الأمر أبسط مما يتصور.. فنحن نقطع أكثر من نصف الطريق في العلاج حين نعرف العلة.. مؤكداً عليه بضرورة الاتصال بي لتحديد موعد والمباشرة بعلاجه.. لأترك بعدها الزوجين مُودِّعاً.

أستطيع أن أقول الآن وبضمير مرتاح أنّ القصة انتهت عند هذا الحد.. إذ منحتُ الزوج بعد ذلك كل الاهتمام المطلوب.. فهو مجرد شخص مبعثر.. ويحتاج إلى من يقوم بترتيبه من خلال مضادات الاكتئاب التي وصفتُها له.. مع تنبيهه أنّ الأدوية النفسية بمثابة العصا التي يرتكز عليها أثناء سيره في درب الحياة.. فلا يجب أن يعتمد عليها كلية.. وإنما عليه

اتخاذ نمط حياة أفضل وسلوكيات أصح.. أي أنّ الأدوية بداية العلاج وليست نهايته.

كما منحته أيضاً جلسات نفسية مكثفة.. علماً بأنها من مهام الاستشاري النفسي.. لكني أقوم بذلك بين الحين والآخر وألعب هذا الدور أيضاً.. المهم أننا تحدثنا خلال تلك الجلسات كثيراً.. واعترفَ أنه ضرب (سمر) قبل وفاتها بساعات قليلة بسبب شقاوتها.. مما زاد الألم وقوة الشعور بالذنب في قلبه.

وقد برّر استخدامه للضرب أنه هو نفسه قد تعرّض للضرب أيضاً في طفولته ولم يجد في الأمر بأساً.. مما جعلني أخبره صراحة أنه طالما يرى أنّ ضرب الأطفال أمرٌ عاديٌّ.. فهذا بحد ذاته دليلٌ على أنه ليس إنساناً سوياً.. نعم.. إذ لا يوجد عاقل في هذا العالم يرى أنّ الإيذاء الجسدي لشخص أصغر وأضعف منه أمرٌ عاديٌّ.. أعرف أنّ كلامي كان قاسياً عليه.. لكن لا بد من بعض الدروس أثناء العلاج.. خاصة وأنني لم أخبره بذلك إلاّ بعد أن شعرت أنّ حالته تحسنت كثيراً.

ولا أنسى أنّ (أنوار) اتصلت بي بعد مدة لتشكرني مرة أخرى على إنقاذي لأسرتها على حد قولها.. مع شعور شقيقتي بفخر

شديد حين رأتني ذات يوم في بيت العائلة، وشكرتني بدورها للمرة الثالثة أو الرابعة على كل ما فعلت.. ثم قالت ما أثّر بي كثيراً:

- أنت لست شمعة تحترق من أجل أحد.. بل أنت تحاول أن تضيء الشموع لكل من حولك يا شقيقي العزيز.

فابتسمت لها بامتنان.. حقاً إنّ لذة الإنجاز لا تساويها أية لذة أخرى.. عموماً.. بعض الأمور لا يمكن أن ننظر إليها من زاوية أخرى.. فهي تحتل كل زوايانا.. هكذا كان الحال مع زوج (أنوار).. ثم أتيت أنا من الخارج.. ونظرت إلى الأمر بطريقة مختلفة.. وزاوية مختلفة.. لأحل في النهاية لغزاً نفسياً معقّداً.. بدا للجميع مجرد مشكلة سخيفة.

الحفل

يحكيها: (حمد)

كنت جالساً في مكتبي كما هي العادة في مناوبتي المسائية التي أعتبرها شبيهة بجلوسي في أحد المقاهي الصغيرة في أرياف أوروبا.. حيث الهدوء التام.. والموسيقى الهادئة التي تنبعث من هاتفي.. وتلك القهوة الساخنة التي تجعلني أشعر بالامتنان لحياتي.. ربما الشيء الوحيد الذي أكرهه إلى حد ما.. نظام النوم الذي تفسده مناوبات المستشفى المسائية.. لكن لا بأس.. لكل مهنة في العالم متاعبها.. هذا ما أقوله لنفسي دائماً وأنا أتذكر الأشياء الأخرى التي يحسدني عليها الكثيرون.

فأنا أعيش حياتي كما أريد.. بعيداً عن صخب المجتمع ومشاكله.. عدا تلك المرات القليلة التي يلح فيها أشقائي كي أقوم ببعض الواجبات الاجتماعية.. وهو ما أحاول التنصل منه.. مدّعياً تعارض تلك المناسبات مع ظروف العمل.. فأسمع شقيقي الأكبر يخبرني باستمرار: ((أنت تمارس سياسة: خالف تُعرف)).. لأسكتَ دون رد احتراماً له.. لكني أغيّر المقولة بيني وبين نفسي وأردد: ((خالِف تكتئب)).. كون الاختلاف ليس بالأمر المرغوب في مجتمعاتنا التي لا تتدخل إلا في شأن من يترك الناس في حالها.

كنت أرتشف القهوة في نفس اللحظة التي سمعت فيها طرقاً

خفيفاً على الباب.. فاعتدلت قليلاً.. وقبل أن أسمح للطارق بالدخول.. فتح الباب.. لأجد شاباً حليق الوجه يبدو في أواخر الثلاثينيات.. يرتدي ثياباً ثقيلة كما هو متوقع بسبب برودة الجو.. وقد كان طويل القامة.. أطول مني بكثير.. ربما قصر قامتي النسبي يجعلني أدقق دوماً في هذا الأمر حين ألتقي بأي شاب.. لكن لا بأس.. لم يعد طولي يسبب لي عقدة كما كان الأمر في مراهقتي ومرحلة العشرينيات من عمري.. لقد وصلتُ إلى مرحلة كبيرة من النضج بعد كل هذه السنوات.

أشرت إليه بود أن يجلس.. وكشأن من يزور مستشفى الطب النفسي لأول مرة.. بدأ يذكر بعض الملاحظات عن حالة الهدوء التي تعم المستشفى في مثل هذا الوقت على عكس المستشفيات الباطنية.. ومن تلك الملاحظات المكررة التي ذكرتُها لكم أكثر من مرة في تجارب سابقة.. مما جعله يشعر باسترخاء تام على حد قوله.. خاصة مع الدفء الشديد في غرفتي بسبب تلك المدفأة الحديثة التي اشتريتُها على نفقتي.

سألته عن سبب الزيارة وأنا أعدل نظارتي وأضع أمامي ورقة بيضاء -كعادتي- كي أكتب عليها أية ملاحظة أجدها ضرورية في كلامه.. فتنحنحَ بالمقابل ليقول بشيء من الرجاء:

-	أنا لست هنا للبحث عن علاج يا دكتور.. إنني فقط أريد أن يستمع إليّ أحدهم ويصدّقني.. هذا كل ما يهمني.. أن تصدّقني.. وأرجوك أن تضع في اعتبارك أنني لن أتكبد العناء لزيارة مستشفى الطب النفسي في مثل هذا الوقت كي أكذب عليك.. فلا مصلحة لي بذلك.

ابتسمت في قرارة نفسي وأنا أتساءل إن كان سيصدقني هو لو أخبرته بما مررت به طوال مسيرتي كطبيب نفسي.. ثم طلبت منه مبتسماً أن يخبرني عن مشكلته وكليّ آذان صاغية.. بالطبع لم يكن يعاني من أحد الأمراض النفسية المعتادة.. وإلا لم أكن لأنشر القصة أصلاً.. خاصة مع المقدمة المحفِّزة التي يرجوني خلالها أن أصدّقه.. ولا أحد يطلب منك أن تصدّقه قبل أن يتحدث.. إلا إذا كان ما يريد قوله لا يصدق بالفعل.

ظللتُ بعدها أنظر إليه بهدوء منتظراً منه أن يتحدث.. ليقول فجأة بضيق وهو يشير إلى يدي:

-	توقف عن ذلك أرجوك.. هذا الصوت يضايقني كثيراً.

انتبهتُ إلى أنني أمسك بقلمي الزنبركي، وأضغط عليه باستمرار مُحدِثاً ذلك الصوت ((تك.. تتك)).. حسناً.. هذا الشاب يعاني

الـ(ميسوفونيا)* على الأرجح.. لكن لا أظن أنه هنا لهذا السبب.. فتوقفت عن إصدار الصوت متفهِّماً وأنا أنظر إليه.

ليقول بهدوء:

- قصتي غريبة جداً يا دكتور.. لم أجرؤ على إخبارها لأحد كي لا أكون محط سخرية الناس.. لقد بدأ كل شيء منذ أسابيع قليلة.. وفي يوم يفترض أنه ككل الأيام التي تستيقظ فيها باكراً وتستعد للذهاب إلى العمل دون وجود أية خطط في ذهنك.. وهذا سلوك متوقع من شخص يكسب رزقه من راتبه، ولا توجد لديه أية خطط أو طموح للمستقبل.. وإن كان أصدقائي يحسدونني على الحرية التي أمتلكها كوني لا أحمل على عاتقي أية مسؤوليات.. إذ تُوفِّيَ والدايَ -رحمهما الله- منذ سنوات.. وتزوجت شقيقتي الكبرى والوحيدة منذ سنوات أيضاً.. حيث تعيش حالياً حياة مستقرة مع زوجها وطفلتيها.

---

* (ميسوفونيا) (Misophonia) أو (متلازمة حساسية الصوت الانتقائية) وهو اضطراب نفسي يشعر خلاله المصاب بالضيق عند سماع أصوات معينة.. مثل صوت مضغ العلكة أو طقطقة القلم الزنبركي كما حدث في القصة.. أو حتى التنفس بعمق والهمس بالقرب من الأذن.. إلخ.. ويبدأ هذا الاضطراب بالظهور في مرحلة الطفولة غالباً.. وأحياناً يستمر مدى الحياة.. إذ لا يوجد له علاج مؤكد حتى الآن.

سألته باهتمام:

- يبدو من كلامك أنك لم تتزوج بعد.. لماذا؟!.

رد بشيء من الألم:

- لقد فعلت.. لكنّ زوجتـــي طلبت الطـلاق بعـد أن استمـر زواجنا أكثر من 6 سنوات.. والسبب أنني لا أنجب للأسف.. فحالتي ميؤوس منها كما أكد الأطباء.

قلت متفهماً:

- لا شك أنك تشعر بالملل بسبب الوِحدة التي تعيشها.. وحياتك الرتيبة التي لا تملك فيها أي طموح كما تقول.. وبسبب هذا الملل.. ارتكبتَ خطأ ما.. أو فعلتَ شيئاً أوقعك في مأزق.

رمقني بنظرة جانبية جعلتني أندم على عبارتي الأخيرة.. كوني افترضت فيه سوء النية.. فقط لأنه أعزب.. وهو ما يظنه بي جميع أفراد عائلتي.. لكنه تجاوز إساءتي هذه لحسن الحظ.. إذ مط شفتيه وهو يقول:

- يبقى الملل أهون الشرور بالنسبة لي.. إنني أمتلك البال الرائق.. وهي ميزة يفتقدها الكثيرون.. هذا ما أشعر به

حين أكون مع زملاء العمل والأصدقاء.. فأجدهم يتذمرون دوماً من كثرة المسؤوليات والمشاكل الأسرية المعتادة.

سكتَ قليلاً استعداداً للعودة إلى موضوعه الرئيسي كما يبدو.. ثم تابعَ:

- كنت أقول أنّ ذلك اليوم بدا عادياً للغاية وأنا أخرج من شقتي متّجهاً إلى العمل.. حين جلست على مقعد السيارة وأدرت محركها البارد.. قبل أن أنتبه إلى ذلك المظروف الذي وضعه أحدهم على الزجاج الأمامي لسيارتي تحت المسَّاحة.. فأثار الأمر استغرابي!!. خاصة حين انتبهت إلى أنّ المظروف فاخر للغاية، لا يمكن أن يكون إعلاناً من شركة ما.. كما أنّ دعوات الأفراح والمناسبات يتم تسليمها باليد غالباً.. ولا توضع بهذه الطريقة على زجاج سيارتك الأمامي.. مما جعلني أفتح باب السيارة بلهفة وأمد يدي لأصل إلى المظروف.. ثم أنظر إليه باهتمام شديد.. وأنظر إلى اسمي الذي كُتب على ظهره بخط يدوي رائع.. وكأن أحدهم استأجر خطّاطاً من أجل تلك المهمة.. وهذا ما جعلني أفتح المظروف بلهفة متسائلاً عن هوية من يرسل شيئاً كهذا في زمن التكنولوجيا ووسائل التواصل

الاجتماعي.. و:((نتشرف بدعوتك الليلة لحضور حفل العائلة السنوي))، مع عنوان المكان الذي اتضح أنه شاليه فاخر في منطقة (بنيدر) كما هو مذكور في الوصف.. والتأكيد على ضرورة الحضور مرتدياً بذلة وليس أي شيء آخر.

تنهَّد وهو ينظر إلى الفراغ.. ليقول:

- في البداية شعرت أنّ هناك خطأً ما.. وأنّ أحدهم -ربما- ترك البطاقة على سيارتي وهو يقصد سيارة شخص آخر مثلاً.. لكني تذكرت أنّ المظروف يحمل اسمي الثلاثي.. أي من المستحيل أن تكون هذه صدفة.. إنني المقصود والمدعو.. وإن كنت أجهل هوية الداعي.. فمن هي (العائلة) التي تدعوني كما يشير الكلام على المظروف؟!.. إنّ عائلتنا متوسطة الدخل.. وعدد أفرادها قليل نسبياً.. كما أنني أعرفُ أقاربي.. وأدرك جيداً أنّ أحداً منهم لن يبادر بإقامة أي حفل.. ناهيكَ عن أنّ هذا الحفل المزعوم (سنوي).. أي يقام كل عام كما هو مفترض من الدعوة.

سكتَ قليلاً مستذكراً تلك اللحظة كما يبدو.. ثم أكمل:

- ورغم ذلك.. وضعتُ الدعوة جانباً ورحتُ أقود سيارتي ذاهباً إلى العمل.. حيث كان اليوم عادياً هادئاً كحال كل أيامي.. فأنا أعمل في دائرة حكومية لا تستقبل المراجعين.. لذا قضيت الوقت في إنجاز بعض المهام الوظيفية، ومن ثم الحديث حول أمور عديدة مع زملائي.. دون أن أتذكر أمر تلك الدعوة إلا حين وجدتُها حيث تركتها على المقعد الجانبي في السيارة بعد انتهاء ساعات العمل، وأثناء عودتي إلى شقتي.

قلت متنهِّداً:

- أمر يثير الفضول بالفعل!.

هز رأسه مؤيداً.. وقال:

- كان يستحيل تجاهل الأمر.. خاصة بالنسبة لرجل مثلي لا يوجد لديه ما يفعله أصلاً بعد انتهاء العمل.. لذا.. ومع اقتراب الوقت من الثامنة مساء.. شعرت بالحماس يتضاعف في أعماقي لمعرفة سر تلك الدعوة وهوية أصحابها.. فنهضت لأحلق ذقني بعناية.. وارتديت البذلة الوحيدة التي أمتلكها، والتي اشتريتها خصيصاً حين

سافرت منذ سنوات قليلة إلى إحدى الدول الأوروبية مبعوثاً من جهة عملي وممثلاً لها.

قلت متوجّساً شراً:

- ألم تفكر بإبلاغ أحد معارفك عن وجهتكَ من باب الحذر؟!.

هزّ رأسه نفياً وهو يمط شفتيه، وكأنه لم يفكر بأمر كهذا.. ليكمل:

- خرجت بعدها بمزاج رائق للغاية، شاعراً بشيء من السعادة والاسترخاء مع هذا التأنق.. مما جعلني أقود سيارتي بثقة شديدة وأنا أدندن بلحن الأغاني التي تبثّها إحدى محطات الإذاعة.. إلى أن بدأ التركيز حين وصلت إلى منطقة (بنيدر) محاولاً البحث عن ذلك الشاليه.. لم يكن الأمر عسيراً لأعثر عليه، رغم أنّ المنطقة تعج بالشاليهات.. إذ بدا فخماً للغاية بطرازه المعماري القديم.. شامخاً لوحده بعيداً عن الشاليهات الأخرى.. أنواره مضاءة بأكملها تبدّد كل ظلام المنطقة.. ففتحت نافذة سيارتي شاعراً بنشوة غريبة لم أفهمها أنا نفسي.. لأنظر إلى السماء والنجوم المتناثرة.. وأتذكر أننا نعيش في مجرة صغيرة من

مليارات المجرات.. تحوي مجموعة شمسية دقيقة جداً.. والتي تحوي بدورها كوكباً ميكروسكوبياً.. يسير على سطحه ذلك الإنسان الذي يظن أنه يمتلك العالم.

ابتسمتُ لتعبيره الجميل.. وتحفزت أكثر وأنا أستمع إليه.. فقد كانت طريقته في سرد قصته مشوقة جداً.. حتى إنني نسيت الورقة التي وضعتها أمامي، والتي يفترض أن أسجل عليها ملاحظاتي.. بعد أن تبيّن أنه لا يعاني أية مشاكل نفسية.. بل يريد من يستمع إليه فحسب كما أكد بنفسه في البداية.. المهم أنه أكمل:

- كنت أقود سيارتي بحذر في الطريق الداخلي المظلم بعيداً عن الشارع العام.. وأنا أقترب من الشاليه تدريجياً.. إلى أن وصلت أخيراً.. حيث بدا المكان وكأنه سينفجر من شدة البذخ.. لتعود تلك التساؤلات بقوة إلى ذهني.. فأنا أنتمي إلى عائلة عادية جداً كما أكدتُ لك.. ولا يوجد لديّ أي أصدقاء أثرياء.. فمن هؤلاء؟!.. ولماذا قاموا بدعوتي أصلاً؟!.. ظلّ عقلي يطرح تلك التساؤلات وأنا أدخل بسيارتي خلال البوابة الحديدية.. حيث وجدتُ أحدهم يستوقفني بابتسامة عريضة.. ثم ((مرحباً يا (حمد).. لم

أعرفْ أنهُ أنت.. تفضّل.. تستطيع أن تركن سيارتك هنا وتسير مشياً إلى الداخل)).

انتبهتُ للتو أنه لم يخبرني باسمه سوى الآن.. فسألته مستفهماً:

- من يكون هذا الشخص الذي عرفك بالاسم؟!.

هزّ كتفيه في حيرة كناية عن جهله وهو يؤكد:

لم ألتقِ به في حياتي يا دكتور.. لقد كان شديد التأنق.. ويتحدث باللهجة المحلية.. أي أنه لم يكن حارساً أو بواباً إن كان هذا ما طرأ في ذهنك.. لكني طرحت هذا التساؤل جانباً وعلامات الاستفهام تكبر داخلي أكثر وأكثر.. إلى أن ركنتُ سيارتي كما أشار.. ونزلتُ لأسير مشياً عبر ذلك الممر الذي يشق طريقه وسط حديقة باهرة المنظر.. ثم.. بدأت أسمع أصوات المدعوين في الداخل وهي تقترب من مسامعي شيئاً فشيئاً، وأنا أقترب بدوري من الباب الخشبي الفاخر.. إلى أن وصلت.. لأطرق الباب بهمس -إن كانت اليد تهمس من شدة الخجل- لكن بالطبع لن يسمعني أحد وسط هذا الضجيج.. فتجرأتُ قليلاً وأمسكتُ مقبض الباب لأفتحه بنفسي.. و.. حسناً.. لم أتوقع أبداً هذه

الفخامة.. إنني في قصر.. قصر حقيقي.. أعرف أنّ الشاليه يبدو فخماً للغاية من الخارج.. إلا أنه بدا أكثر فخامة من الداخل.. وهذا ما جعلني أذوب خجلاً شاعراً بالنقص.. فمن المؤكد أنّ الرصيد البنكي لأقل المدعوين شأناً يعادل راتبي لـ10 أعوام على الأقل.. لكن شعور النقص هذا تلاشى بسبب حفاوة الاستقبال التي جعلتني أشعر وكأنني ملك أو حاكم دولة.. تخيّل أن تجد مجموعة من كبار رجال الأعمال -كما بدوا لي- في استقبالك ويعرفونك بالاسم.. وكأنهم كانوا في انتظارك شخصياً.

لم أتوقع ذلك بصراحة.. فالدعوة غريبة بالفعل!!.. ولا شك أنّ سببها أغرب.. وإلا لما كان ذلك الشاب يجلس أمامي الآن.. لكنّي طردت كل الأفكار من رأسي.. ومنحتُ (حمد) اهتمامي كي يكمل:

- وبسبب هذه الحفاوة.. شعرتُ بالخجل من طرح التساؤلات التي جئتُ من أجلها.. فوجدت نفسي أبتسم لا شعورياً.. خاصة مع رائحة كعكة الشوكولاتة المميزة التي خرجت من الفرن للتو والتي تملأ المكان.. إنها رائحتي المفضلة بالمناسبة.

قلت ببساطة:

- إنه تأثير (الإشعاع السايكوفيزيائي)*.. ربما لم تسمع بهذا المصطلح مسبقاً.. لكنك خضعتَ له بكل تأكيد.. فأنت تتوتر بمجرد أن يتوتر الجالسون معك.. وإذا انفجروا ضاحكين.. ستضحك معهم بلا سبب.. إنّ الحماس والخوف والتوتر والضحك كلها عواطف تنتقل بـ(الإشعاع السايكوفيزيائي).. فالرؤية تؤدي دوراً أساسياً في نقل هذه العدوى النفسية.

يبدو أنه لم يكترث إطلاقاً لكلامي.. مما أشعرني بالخجل.. وجعلني أتذكر ما أنصح به دوماً.. ألا نمنح الآخرين معلومات لم يطلبوها منا.. فتنحنح وهو ينظر إلى الفراغ.. ثم أكمل:

- وبسبب تلك الحفاوة المخجلة.. ذهبت لأجلس على أحد المقاعد الفاخرة متسائلاً في قرارة نفسي عن الخطوة التالية.. ليأتي أحدهم وهو يحمل صينية عليها كعكة الشوكولاتة ذاتها مع بعض الحلويات، لكني رفضتُها بأدب.. ثم نظرت حولي وقد بدأت أشعر بالاسترخاء رغم الحيرة التي سيطرت عليّ.. من أين يأتي هذا الاسترخاء؟!.. على

* حقيقة بالطبع.. ويطلق أيضاً على هذا التأثير مصطلح (عدوى العواطف) (Emotional Contagion).

الأرجح من الفتيات اللاتي ملأن المكان.. فتيات جميلات إلى درجة مؤلمة.. ولو كان يتعيّن عليك أن تختار إحداهنّ للزواج.. لوقعتَ في مأزق حقيقي.. هذا ما قلته لنفسي قبل أن ألمح تلك الفتاة التي لا يتجاوز عمرها الـ18 عاماً والتي كانت ترتدي فستان سهرة يكشف عن كتفيها.. في حين ينسدل شعرها الأسود عليهما مما جعل عدم النظر إليها تحدّياً حقيقياً.. فبدت كالملاك وهي تجلس قربي وتنظر إليّ بإعجاب واضح.. لكنّ جمالها لم يكن أقوى من فضولي.. إذ طرحتُ عليها تساؤلاتي كلها دفعة واحدة.. وخرجت الكلمات سريعة من فمي وأنا أقول بانفعال واضح: ((المعذرة.. من أنتم بالضبط؟!.. وكيف تعرفون اسمي؟!.. بل ومن أحضر لي بطاقة الدعوة؟!.. فهذا يعني أنكم تعرفون مكان سكني أيضاً)).

قلت لـ(حمد) صراحة:

- لا يمكن أن تصدق الكم الهائل من القصص الغريبة التي أستمع إليها بين الحين والآخر.. لكني أقولها لك بصدق.. لقد عجزت تماماً عن استنتاج ما سيحدث.. إنّ قصتك تمتلئ بالألغاز.

أومأ برأسه موافقاً.. وقال:

- لكنّها لم تجب على أسئلتي يا دكتور.. بل راحت تتحدث فجأة عن.. عن حبها الشديد لي!!.

صمتَ للحظة أمام نظراتي المصدومة!!. ثم أطلق تنهيدة حارة ليكمل:

- كل شيء كان يؤكد لي أنني أحلم.. كل شيء سوى الواقع.. فالواقع يقول إنني أمرُّ بكل هذا وأعيشه لحظة بلحظة.. ورغم أنه من المنطقي أن أتأثر بما قالته الفتاة.. إلا أنّ وقع المفاجأة كان أكبر بكثير.. مما جعلني أتجاهل كلامها عن الحب.. وأكرر تساؤلاتي على مسامعها.. لكنها لم تجد الوقت لتجيبني.. إذ اقترب أحد أهم الحاضرين وأكبرهم سنّاً كما بدا لي.. فنهضتُّ من مكاني احتراماً لاقترابه.. ظناً مني أنه سيصافحني مثلاً.. إلا أنه أحاطني بذراعه وهو يخبرني عن سعادته البالغة لوجودي بينهم.. لينادي بعدها على الجميع بصوت مرتفع للغاية كي يجذب انتباههم.. ثم راح يتحدث عني وعن ضرورة مصافحتي من قبل كل واحد منهم قبل أن ينتهي الحفل.. وهذا ما حدثَ بالفعل.

قلت مغمغماً:

- لا أشعر بالراحة تجاه الأشخاص شديدي الود.. خاصة إذا كنت لا أعرفهم.

أيَّدني وهو يشير إليّ بسبابته.. ثم عقد حاجبيه وهو يقول:

- لا يمكن أن تتخيل الحرج الذي وقعتُ فيه يا دكتور.. لقد التفوا حولي فجأة وكأنني نجم الحفل.. في حين أنني لا أعرف من هؤلاء أصلاً!!.. حتى إنني نسيت أمر الفتاة تماماً.. ثم راحوا بعد ذلك يصافحونني بحرارة.. ليقودني ذات الرجل بعدها إلى الخارج.. ويخبرني باحترام أنّ الحفل انتهى، وأنه يمكنني الرحيل الآن.. المشكلة أنّه قالها ولم يسمح لي حتى بالرد.. إذ التفتَ سريعاً لينخرط تماماً في الحديث مع مجموعة من الحضور.. فلم أجد بدّاً من حمل أسئلتي هذه إلى الخارج.. والفضول يكاد يقتلني لمعرفة ما يدور حولي!!.. ناهيكَ عن الحنق الشديد الذي أصابني كوني لم أقضِ وقتاً كافياً هناك.. مجرد ربع ساعة أو أكثر قليلاً.. و.. أكاد أقسم أنهم كانوا يختلسون النظر إلى خطواتي المبتعدة.. إلا أنني لم أجرؤ على الالتفات لأنظر إليهم.

سكتنا قليلاً وأنا أراه يستذكر بعض اللحظات.. ثم قال بشيء من الحزن:

- لا أنكر أنّ عودتي إلى شقتي كانت عسيرة للغاية.. إذ امتلأت عيناي بالدموع، وكأنني أعرف أنني تركت للتو ذكرى عزيزة جداً.. هل هي الفتاة؟!.. هل هي الأسئلة المزدحمة في عقلي تجاه تلك الليلة؟!.. هل هي حياة البذخ التي يتمناها كل إنسان؟!.. إنها أجمل ليلة في حياتي.. وأغربها أيضاً!!.. لا شك في ذلك.. وبالطبع لم يتوقف الفضول عند وصولي إلى شقتي.. أو حتى في الأيام القليلة التالية.. فقد كنت شارد الذهن طوال الوقت أنظر إلى بطاقة الدعوة بحنين غريب بعد أن وضعتُها على المنضدة التي تتوسط الصالة.. أحاول أن أفهم ما حدث.. أحاول أن أجد تفسيراً.. إلى أن وجدتُ حلاً بديهياً للغاية لا أعرف كيف فاتني؟!.. أن أزور ذلك الشاليه مرة أخرى.

قلت بحذر:

- ما زلت أجهل إلى أين تتجه قصتك؟!.. أتمنى أن تكون قد عثرت على إجابات لتساؤلاتك.. فالفضول بات يقتلني لمعرفة دوافع ذلك الحفل الغامض.

نظرَ إلى شاشة هاتفه الذي وضعهُ على مكتبي.. وكأنه يريد أن يعرف الوقت.. ثم نظر إليّ وقال:

- إذا كان الفضول يقتلك الآن.. فلكَ أن تتخيل حالتي حينها.. وهذا ما جعلني -بعد أكثر من أسبوع على تلك الحادثة- أتّجه حال خروجي من العمل إلى مكان الشاليه.. لعليّ أعثر على إجابات لتساؤلاتي.. لا أتذكر كيف وصلت إلى منطقة (بنيدر).. وهي بالمناسبة تبدو مختلفة تماماً عما هي عليه في الليل.. لكني وصلت إلى الشاليه في النهاية.. لا أنكر عموماً أنّ الأضواء جعلت الشاليه أكثر روعة وبريقاً في الليل.. أما مع أشعة الشمس.. فهو يبدو قديماً للغاية رغم فخامته.. المهم أنني اتجهتُ ناحيته بسيارتي.. لأتوقف أمام البوابة الحديدية.. وأنزل باحثاً بشغف عن الجرس أو زر المناداة.. قبل أن يظهر أحدهم من ذلك المبنى الصغير الملاصق للبوابة.. إنها غرفة الحارس.. أتذكرها جيداً.. يبدو أنّ صوت محرك سيارتي لفتَ انتباهه.. ثم: ((مرحباً يا سيدي.. هل أستطيع مساعدتك؟!)).. تنحنحتُ لأسأله: ((مرحباً.. هل لي أن أعرف من يملك هذا المكان؟!)).. ابتسم وهو يذكر اسماً لأحد أشهر رجال الأعمال في البلد.. مما زاد الأمر غموضاً كوني لا تربطني أية معرفة شخصية بهذا الرجل.. ثم سألتُ

الحارس عن الحفل الذي أقيم هنا منذ أيام قليلة.. فضحكَ وهو يفجر مفاجأة لم يعرف وقعها عليّ.. حين قال ببساطة أنه لم تقام هنا أية حفلات منذ مدة طويلة!!.

لا أنكر أنني توقعتُ شيئاً كهذا.. لكنني لم أخبر (حمد) بذلك.. بل تركته يكمل:

- حسناً.. لا داعي للحديث عن تأكيدي وإصراري على حدوث الأمر.. ورفضه هو وإصراره بالمقابل على أنني مخطئ.. بل وزاد الأمر غموضاً حين أكّد لي أيضاً أنّ مالك الشاليه قرر إخلاءه منذ بضعة شهور تمهيداً لإزالته ولإعادة بنائه بالكامل.. مما جعلني أصمت بعض الوقت لأنني لم أجد ما أقوله.. فلا يمكن أن أتّهم الرجل بالكذب.. لذا شكرته.. والتفتُّ عائداً إلى سيارتي.. ثم تذكرتُ أمراً مريباً.. مجرد سؤال صغير طرأ في ذهني للتو.. مما جعلني أعود أدراجي إلى الحارس لأعرف هوية الشخص الذي كان يملك الشاليه قبل رجل الأعمال هذا.. فحكَّ رأسه بشيء من الشرود محاولاً التذكر.. ثم أخبرني أنه كان ملك عائلة الـ(......).. لكنَّ رجل الأعمال هذا اشتراه منهم منذ أكثر من 35 عاماً.

قلت بغموض:

- إنه اسم عائلتك.. أليس كذلك؟!.

نظر إليّ بدهشة غير مصدق أنني قمتُ باستنتاج شيء كهذا.. ثم قال موافقاً:

- نعم.. إنه اسم عائلتي بالفعل.. لكني ظننت أن الأمر لا يتجاوز تشابه أسماء العوائل.. لذا فقد عدتُ أدراجي.. وعدتُ إلى ممارسة حياتي رغم أنّ التساؤلات في رأسي لم تتوقف يوماً.

ابتسمت وقد بدأتُ أفهم القصة.. لكني تركته يكمل.. و:

- مرَّت شهور قليلة وتلك الحادثة لم تخرج من ذهني.. إلى أن جاء ذلك اليوم.. حين فوجئت بأحدهم يقرع جرس شقتي.. وهو أمر لا يحدث كثيراً.. فنظرتُ من العين السحرية للباب.. وإذ بها شقيقتي.. حيث فتحتُ لها الباب مباشرة وعانقتها، وقبّلت جبينها كونها تكبرني بسنوات.. لتخبرني أنها كانت تزور صديقتها التي تسكن بالقرب مني.. ووجدتْها فرصة كي تفاجئني بزيارة دون سابق إنذار.. فرحبتُ بها في حرارة.. وجلسنا بعدها نتحدث حول العديد من الأمور.. ثم شعرت أنه من

اللائق أن أدعوها إلى العشاء كونها لم تزرْني منذ مدة طويلة.. لذا نهضتُ لأطلب شيئاً نأكله من إحدى خدمات التوصيل.. لكن شقيقتي سألتني فجأة: ((كيف حصلتَ على هذه البطاقة؟!)).. نظرتُ إليها مستفهماً.. لأراها تمسك ببطاقة الدعوة إياها، والتي لم تفارق المنضدة التي تتوسط صالة شقتي منذ ذلك اليوم.. فوضعتُ الهاتف جانباً لأسألها بفضول إن كانت تعرف شيئاً عن البطاقة.. لتردَّ بانبهار: ((يا إلهي!!.. لم أرها منذ سنوات طويلة جداً.. كنت حينها طفلة.. إنها حفلة أقامتها عائلتنا أيام مجدها وثرائها.. في منتصف السبعينيات على ما أظن.. لم تكن أنتَ قد ولدت بعد.. هذا لا يصدق!!.. مجرد رؤيتها أعادت لي ذكريات الطفولة كلها.. لقد أقيم الحفل وعمري لا يتجاوز السنتين.. لكني رأيت البطاقة ذات مرة حين كنت في الخامسة من العمر.. أعتقد أنها كانت في خزانة* والدي.. أليس كذلك؟!)).

* من أجل الفائدة اللغوية.. يجب أن نذكر هنا أن كلمة (خزنة) يشار بها إلى الصندوق الحديدي الذي نحفظ فيه المال.. أما لفظة (خزانة) فهي الصندوق الذي نحفظ فيه المال بالإضافة إلى الأشياء الثمينة كالمجوهرات والأوراق الهامة.. في حين تعد لفظة (خزينة) مصطلحاً اعتبارياً فحسب.. أي أنها ليست صندوقاً فعلياً.. بل يشار بها إلى المكان الذي يتم فيه تخزين الأموال والأشياء الثمينة.. كخزينة الدولة مثلاً.

لم أعلق على كلامه.. بل تركته يتنفس بعمق، وكأنه اكتشفَ الأمر للتو.. ثم قال:

- إنّ الخزانة موجودة بالفعل في غرفتي يا دكتور.. فقد أخذتُها معي حين قمنا ببيع بيت العائلة بعد وفاة والدي.. ولم أفتحها أبداً كوني أجهل أرقامها السرية.. وقد ظللت أؤجل إحضار مختص ليفتحها لي.. عالماً أنها لا تحوي أشياء ثمينة.. بل مجرد ذكريات قديمة لا قيمة لها.. إلى أن نسيت كل شيء ونسيت حتى وجود الخزانة في غرفتي رغم أنني أراها يومياً.. فنحن ننسى وجود الأشياء حين تكون أمامنا طوال الوقت كما تعلم.. وهذا يقود إلى سؤال هام جداً.. كيف خرجت البطاقة من الخزانة؟!.. ومن وضعها على زجاج سيارتي؟!.

نظر إليّ وكأنه ينتظر مني الإجابة.. لكني ظللت صامتاً بالمقابل.. ليقول:

- سكتُّ تماماً.. وشردَ عقلي دون أن أرد على كلام شقيقتي التي افترضتْ -على ما يبدو- أنني فتحتُ الخزانة بنفسي واستخرجت منها البطاقة.. في حين قررت أن أخفي عنها

أمر الحفل لسبب أنا نفسي أجهله.. وبدأتُ أتساءل عن كيفية وصول البطاقة إلى زجاج سيارتي الأمامي.. وبقية الأسئلة التي طرحتها مراراً في السابق عادت إلى رأسي بقوة.. فماذا عن الشاليه؟!.. ومن الذي استقبلني هناك؟!.. وكيف كانوا يعرفونني بالاسم؟!.. وماذا عن كلام الحارس الذي يناقض كل الأحداث التي عشتُها حين أكد لي أنّ أحداً لم يقم أي حفل في ذلك الشاليه منذ مدة طويلة؟!.. هل يعقل أنني توهمتُ كل ما حدث؟!.. ظلّت تلك التساؤلات تطرح نفسها بقوة على ذهني المرتبك.. إلى أن انتهت شقيقتي من زيارتها.. حينها رحتُ أبحث بلهفة عن رقم أحد المختصين بفتح الخزائن.. إلى أن عثرت على أحدهم.. حيث طلب مبلغاً مرتفعاً قليلاً مُدَّعياً أن عملية فتح الخزانة تحتاج بعض الوقت.. بعد أن أرسلتُ له صورتها عبر إحدى وسائل التواصل الاجتماعي.. لكن الفضول جعلني أوافق مباشرة.

لا أعلم إن كنت ذكياً.. أم أنّ ما رأيته في حياتي جعلني قادراً على ربط الأحداث ووضع الاستنتاجات الصحيحة.. فقد قال (حمد) ما توقعتهُ تماماً.. حين أردف سريعاً:

- سأقفز مباشرة إلى ما عثرتُ عليه في الخزانة بعد أن تمكنتُ من فتحها.. إذ وجدت أوراقاً قديمة لم يلمسها أحد منذ سنوات.. لم تكن ذات قيمة كما هو متوقع.. لكني وجدت أيضاً مجموعة من الصور القديمة.. إحداها لوالدتي -رحمها الله- في شبابها.. نعم يا دكتور.. إنها ذات الفتاة التي كانت موجودة في الحفل والتي أخبرتني بحبها!!.

أخبرته باستنتاجي مباشرة:

- والشاليه في واقع الأمر كان ملكاً لعائلتك في الماضي البعيد، وقبل ولادتك كما قالت شقيقتك.. الأمور شديدة الوضوح الآن.. إنني أصدّقك يا (حمد).. لكن لو أخبرتَ قصتك شخصا غيري لما صدّق منها حرفاً.. خاصة وأنها قد تبدو مكررة وعولجت كثيراً في القصص والأفلام.. أن تذهب إلى مكان ما.. وتلتقي بمجموعة من الموتى دون أن تعلم أنهم موتى.. أما في عالم الواقع.. فقد ظننت هذا مستحيلاً.. قبل أن ألتقي بك.. وأسمع قصتك.

لم يكن يتوقع ردّة فعلي.. لذا ظل ينظر في الفراغ مصدوماً!!.. ثم قال بحزن وهو يحك ذقنه الحليقة:

- للأسف.. لقد جئتُ إلى هذا العالم متأخّراً.. كعمود إنارة يطل على مقبرة قديمة.. فالمقبرة هي أمجاد عائلتي التي دفنَتْها السنوات.

أعجبني تشبيهه.. فابتسمت رغماً عني.. ليكمل برهبة:

- هل يعقل أنني التقيت بمجموعة من الموتى كما تقول وكما تبدو عليه الأمور؟!.. فهذه الإجابة الوحيدة المتاحة.. لأنني رأيت صورة والدتي وأعرف أنها ذاتها الفتاة التي التقيتها في الشاليه.. لم أتعرّفها حين رأيتها.. فأنا لم ألتقِ بوالدتي وهي في هذه السن بطبيعة الحال.. ناهيكَ عن أنّ الحفل نفسه كان مبهراً، أنساني ربط أية مواضيع ببعضها.. ولا يمكن أن يلومني أحد على هذا.. فكيف سيخطر بذهني أنني أجلس مع مجموعة من الموتى؟!.. لكن.. حين رأيتُ صورة والدتي.. بدأت الأمور تتضح في عقلي تدريجياً.. وانتبهتُ إلى أنّ الرجل الذي رحّب بي وطلب من الجميع مصافحتي كان في واقع الأمر جدّي.. بعد أن استذكرتُ ملامحه جيداً.. إنه يشبه والدي إلى حد ما.. من المؤكد أنّ والدي كان موجوداً في الحفل أيضاً لكني لم أنتبه إلى وجوده بين الحضور.. أما البقية.. فأعتقد أنهم

أقاربي وأصدقاء العائلة.. لقد كانت عائلتي شديدة الثراء في الماضي.. قبل أن يخسر والدي ثروته في عدة صفقات تجارية غير موفقة.. مما اضطره إلى بيع كل ممتلكاته في أواخر سبعينيات القرن الماضي.. منها ذلك الشاليه.. إلا أن هذا لا يجيب على تساؤلات أخرى.. فكيف وصلت البطاقة إلى سيارتي؟!.. ومن كتب اسمي عليها بهذا الخط الاحترافي؟!.. هل يعقل أنّ شقيقتي فعلت ذلك؟!.. هذا غير منطقي.. لا يمكنها الدخول دون علمي لتفتح الخزانة التي تجهل هي نفسها أرقامها السرية.

قلت مخمّناً بعد لحظات من التفكير:

- التفسير الوحيد المتاح أنكَ فتحت الخزانة أثناء نومك يا (حمد).. مؤكد أنّ أرقامها السرية موجودة في عقلك الباطن.. لكنك تجهل ذلك.. لا بد أنك رأيت والدك -رحمه الله- يفتح الخزانة أمامك مرة واحدة على الأقل.. ويبدو أنّ الأرقام ظلت مركونة في عقلك الباطن.. ففتحتها أثناء نومك وأخرجت الدعوة.. ثم وضعتها على واجهة سيارتك بعد أن كتبت عليها اسمك الثلاثي.. لتعود بعدها إلى فراشك وتكمل نومك.

سألني مستغرباً:

- لقد وضعت هذا الاحتمال في عين الاعتبار.. لكني طرحته جانباً حين تمعنتُ جيداً في الخط.. إنه ليس خط يدي يا دكتور.. أنا لست خطّاطاً لأكتب اسمي على بطاقة الدعوة بهذه الطريقة المميزة.

قلت موضحا:

- أعتقد أنك نقشت الكلمات أثناء نومك.. ربما بتأثير الموتى من أقاربك الذين قاموا بزيارتك في أحلامك.. لهذا بدا خط يدك مختلفا حتى عجزت أنت نفسك عن تمييزه.

سكت قليلا وهو يبحث عن أي خطأ في هذا الاستنتاج.. ليسألني فجأة:

- ولماذا أسير أثناء نومي لأخرج من الشقة وأضع بطاقة الدعوة على واجهة سيارتي أصلا؟!.. أجد هذا صعب التصديق.. كان بإمكاني تركها في أي مكان بارز في شقتي.

قلت مبتسما:

- لأنك لم تكن لتذهب إلى الحفل لو قمت بوضع البطاقة في شقتك.. أعتقد أن أقاربك الموتى أرادوا إثارة فضولك إلى

أقصى درجة.. من أجل إقناعك بالذهاب إلى الشاليه في تلك الليلة.. وأرجوك أن تتذكر إنني أتحدث معك بعقل حر بلا قيود.. بعيداً عن العلم وشروطه التي لا تعترف بكلامي.

هزَّ رأسه بحزن وكأنه اقتنع بتفسيري.. ثم سألني بتخاذل:

- لكن لماذا؟!.. لماذا فعل أقاربي كل هذا؟!.

أجبته بثقة:

- لأن الحفل كان بمثابة الوداع.. نعم.. حفل وداع لنسل عائلتك الذي سينقطع من بعدك كونك لا تنجب كما أخبرتني.. ولا يوجد لديك سوى شقيقتك التي لن تحمل اسم عائلتك بطبيعة الحال.

نظر إليّ بذهول!!.. وكأنه لم يتوقع مني هذا الاستنتاج.. فأكملتُ متعاطفاً:

- ولهذا أيضاً كنتَ محط اهتمام الجميع في الحفل.. لأنك آخر من تبقى من الذكور في عائلتك بعد وفاة والدك.. أما كلام والدتك -في نسختها الشبابية- عن مدى حبها لك.. فقد كانت تتحدث عن حب الأم لابنها.. إلا أنك فهمته بطريقة خاطئة على ما يبدو.

ردَّ بألم:

- ليتهم سمحوا لي بالبقاء معهم لفترة أطول أثناء الحفل.. لا أعرف لماذا استعجلوا رحيلي.

تنهدتُ وأنا أقول:

- هذه أشياء في علم الغيب.. فنحن لا نعرف شيئاً عن قوانين عالم الموتى.. لكن كونك آخر من تبقى من عائلتك التي فقدت قوتها ونفوذها.. لا يعني أبداً أنك أصبحت شخصاً بلا فائدة.. تذكّر أنك تستطيع أن تتبرع بشيء من الإنسانية إن لم تكن تملك المال.

سكتَ قليلاً متأثراً بنصيحتي.. ثم قال بحذر:

- أنت تصدّق قصتي إذاً.. ولا تظنني كاذباً.. أو أعاني مرضاً نفسياً ما؟!.

قلت بصراحة:

- لن تزور مستشفى الطب النفسي في مثل هذا الوقت لتلتقي بطبيب لن تراه مرة أخرى.. فقط لتكذب عليه.. لقد قلتَها بنفسك حين دخلتَ غرفتي.. أمّا أن يكون ما عشتَه وهماً فهذا مستبعد تماماً.. خاصة وأنّ سجلّك

النفسي -إن صحَّ التعبير- نظيف.. فالأرجح أنّ التجربة التي مررتَ بها حقيقية يا (حمد).. المعذرة.. لا يمكنني الجزم بذلك.. إنه مجرد استنتاج.

انحدرتْ دمعة مفاجئة من عينه.. فمنحته بعض الوقت ليلتقط أنفاسه.. ثم سألتُه إن كان هناك ما أستطيع فعله.. أو إن كان يريد إخباري بالمزيد.. لكن يبدو أنه شعر بالراحة عندما وجدَ لديَّ آذاناً صاغية.. وحين حصلَ مني على الاستنتاج الذي أجابَ على سبب مروره بتلك الحادثة الغريبة.. مما أشبع فضوله.

لم يجد ما يقوله بعد ذلك.. فشكرني كثيراً على حسن استماعي.. قبل أن ينهض من مكانه ويصافحني بحزن.. ليرحل بخطوات منكسرة بطيئة.. وكأنه يتحسر على ماضٍ جميل عاشته عائلته وانتهى.. أو يتحسر على حقبة زمنية ذهبت إلى الأبد ويتمنى كل إنسان أن يعيشها.. أو -وهذا الأرجح- يتحسر على ذلك الحفل الذي حضره، وقابل فيه عائلته بأكملها في أوج مجدها.. ذلك الحفل الذي لن ينساه مدى الحياة.

جيل جديد

تحكيها: فتاة لم تخبرني باسمها.

بعض القصص التي مررتُ بها أتردد كثيراً قبل أن أرويها.. فهي غريبة إلى درجة الاستحالة.. ولا أنكر أنني أنا نفسي لا أصدقها رغم جلوس أصحابها أمامي في المستشفى، وهم يقسمون أنهم يقولون الحقيقة ويرجونني أن أساعدهم بوسيلة ما.. وقد تكون قصتنا هذه إحداها.. حتى إنني على يقين بأنني سأواجه هجوماً عنيفاً من البعض كون ما سأقوله لا يصدق بالفعل.. لكن من يحدد المستحيل؟!.. أنا؟!.. أنت؟!.. على كل حال.. أنا أنقل أغرب القصص التي وصلتني كما هي ممّن يزورونني في المستشفى.. والتي أجدها محكمة جداً من الصعب أن يقوم أصحابها بتأليفها.. كما لا ننسى ما نقوله مراراً وتكراراً.. أنّ أحداً لن يضيع وقته ليزور مستشفى الطب النفسي فقط كي يبهرني.. وهو لا يعرفني أصلاً وعلى الأرجح لن يراني مرة أخرى.

أي أنّ مناقشة واقعية القصص من عدمها ستدخلنا في متاهات كثيرة قد نستمر في النقاش حولها بلا توقف، ولن تؤدي في النهاية إلى نتيجة.. لذا سأترك لكم أمر التصديق من عدمه.. وسأركز أكثر على استمتاعكم بهذه القصة.



كان هذا في بدايات عام 2020.. ولم يتغير شكل العالم بعد بسبب فيروس (كورونا) أو (كوفيد-19)* الذي ما زلنا نعيش تبعاته -كما هو متوقع- لحظة قراءتك لهذه السطور.. كنت يومها في غرفتي في المستشفى، وقد أنهيت مكالمة طويلة مع والدتي أطال الله في عمرها.. وهي تطلب مني للمرة المليون أن أتزوج.. وتقول أنها قلقة جداً عليّ كوني قد أصل إلى مرحلة عمرية متأخرة يفوتني خلالها قطار الزواج.. وإذا لم أجد الفتاة التي تناسبني -على حد قولها- فستجعل شقيقاتي يبحثنَ بأنفسهن عن زوجة لي.

لذا ظللتُ أفكّر بكلامها بعد نهاية المحادثة.. وأتساءل إن كان عليّ أن أتزوج ككل الناس بالفعل.. أم أظل هكذا مختلفاً عن

---

* لن نتحدث كثيراً عن هذا الفيروس العالمي كوننا نعيشه يومياً وجميع وسائل الإعلام في كل أنحاء العالم تتداوله طوال الوقت.. لكن سنوضح أمراً بسيطاً قد يجهله الكثيرون.. وهو الفارق بين فيروس (كورونا) (Corona) و(كوفيد-19) (Covid-19).. فالواقع أنّ فيروس (كورونا) عبارة عن سلالة واسعة من الفيروسات التي قد تسبب المرض للحيوان وللإنسان.. وتكون أعراضه تنفسية تتراوح حدتها من شخص إلى آخر.. أما (كوفيد-19) فهو مرض يسببه آخر فيروس تم اكتشافه من سلالة فيروسات (كورونا).. وذلك بعد تفشيه في مدينة (ووهان) (Wuhan) الصينية في ديسمبر 2019.. ويجب أن نذكر هنا أن العالمة الأسكتلندية (جون ألميدا) (June Almeida) هي التي اكتشفت السلالة الأولى من فيروس (كورونا) عام 1964.. وأطلقت عليه هذا الاسم اشتقاقا من لفظة (Crown) وتعني (التاج).. نسبة لشكل الفيروس.

الجميع.. إلا أنني لم أجد الوقت لأجيب على هذا السؤال.. فقد ركنتهُ جانباً حين رأيت الفرّاش واقفاً عند باب غرفتي المفتوح، ممسكاً بكوب النسكافيه الذي أطلبه بين حين وآخر.. ممَّا أزاح عني كل شرودي وأنا أطلب منه الدخول.

لكني لم أجد الوقت لأرتشف كثيراً من الكوب.. فبعدها بدقائق أيضاً.. فوجئت بفتاة تقف عند عتبة الباب وهي تستأذنني بالدخول.. كان واضحاً أنها تبحث عن الطبيب المناوب.. وقد بدت لي أنها من هؤلاء الذين يزورون المستشفى ليلاً خوفاً على سمعتهم.. وكأن مستشفى الطب النفسي نادٍ ليلي.

لكن لا يهم.. سمحتُ للفتاة أن تدخل، وطلبت منها أن تغلق الباب خلفها.. ثم رحتُ أتأملها أثناء جلوسها.. حيث بدت وكأنها في أواخر العشرينيات من العمر.. ترتدي العباءة التي غطت ما ترتديه من ثياب.. في حين تركت شعرها منسدلاً على كتفيها بلا تكلف.. فرحبتُ بها.. وسألتها عن سبب زيارتها.. لتقول بحذر:

- دكتور.. هل تملك السلطة لتمنعني من الخروج، وتحتجزني في المستشفى؟!.

أجبت مستغرباً:

- احتجاز أي إنسان هنا لا يتم إلا بناءً على رغبته.. أو بناءً على أمر من وزارة الداخلية.. وأحياناً رغبة من ولي أمره إذا كان قاصراً.. وأنتِ لست بقاصر.. وهناك حالات أخرى بالطبع.. كمنع الإنسان من الانتحار على سبيل المثال.

نظرت إليّ بقلق وهي تقول:

- أريدك أن تمنحني الأمان.. وتعدني أن تسمح لي بالخروج من هنا مهما حدث ومهما كانت قصتي.. بالمناسبة.. أنا لست هنا للعلاج من أي مرض نفسي.. فمشكلتي أكبر بكثير.. وعلى الأرجح لن تملك لها أية حلول.. إنها محاولة الغريق الأخيرة للنجاة.. أنتَ القشة التي أتعلق بها.

قلت صراحة:

- الغريق دائماً يتعلق بقشة.. لكن القشة لم تنقذه يوماً.

ردّت باستسلام حزين:

- إنك محق.. لكني -رغم ذلك- أحتاج لمن يستمع إليّ.. وأن يكون المستمِع على قدر من الثقافة.. مع فهم الجسم

البشري جيداً.. كما أريدك أن تعرف معلومة هامة للغاية قبل أن أخبرك بمشكلتي.. فأنا طبيبة أيضاً.. لكني لست طبيبة نفسية.

لا أذكر أنني حظيتُ بزيارة زميل مهنة من قبل.. حتى لو كان ذا تخصص آخر.. لذا هززت رأسي مبتسماً مرحباً بها مرة أخرى.. لتكمل بحذر:

- لقد أخبرتكَ بمهنتي حتى تصدق ما ستسمعه مني.. لأنني لا أظن أبداً أنك ستسمع قصة شبيهة بقصتي.

رغم أنني أسمع تلك العبارة بين حين وآخر.. إلا أنني تحفزتُ كثيراً هذه المرة.. ربما لأن الزائرة طبيبة.. مرجحاً أنها على درجة من النضج العقلي والمعرفة.. أي أنني لا أتوقع أن تكون أسيرة مرض نفسي من دون أن تعلم مثلاً.. كما أثارت انتباهي حين رأيتها تلتفت بقلق وكأنها تترقب مفاجأة ما.. لكنها نظرت بعد ذلك إلى عينيَّ مباشرة لتكمل:

- يجب أن أخبرك أولاً أنّ زوجي طبيب بدوره.. بل ويحمل شهادة الدكتوراه في الطب.. إنه ذكي إلى درجة العبقرية.. ولا حدود لطموحه.. الأمر الذي جعله يركز تماماً على

دراسته وأبحاثه.. وهو شخص طيب القلب مرهف الحس.. لكن يعيبه هزاله الشديد وقصر قامته.. ولك أن تتخيل المضايقات التي تعرّض لها طوال حياته.. خصوصاً في طفولته وفترة مراهقته.. مما سبب له عُقداً نفسية كثيرة جعلته شخصاً انطوائياً يعاني صعوبة في النطق.. بل إنهُ رفض إقامة حفل زفافنا كيلا يكون محط أنظار الناس وسخريتهم أو شفقتهم.. وأنا أعترف أنني لم أكن لأقبل به زوجاً لولا ذكاؤه وحساسيته المفرطة اللذان شعرتُ بانجذاب شديد نحوهما.

قلت متفهماً:

- يبدو لي أنه من هؤلاء الذين يجتهدون في دراستهم لتعويض نواقص في شخصياتهم أو تكوينهم الجسماني.. وعموماً فإنّ الانطوائيين غالباً يسجلون أعلى معدلات الذكاء.. وأحياناً كثيرة يحققون إنجازات عظيمة لم يسبقهم إليها أحد.. أو.. ينتهي بهم المطاف إلى الاكتئاب والانتحار.. فشخصية هؤلاء معقدة جداً ويصعب فهمها.. حتى من قِبل الأطباء النفسيين.

أشارت إليّ بسبابتها متفقة معي، وهي تتفكر بكلامي بإعجاب شديد.. ثم قالت:

- إنه شغوف جداً بالعلم بالفعل، ويقرأ بلا توقف في المراجع العلمية والطبية.. مما زاد من هزاله وضعف بنيته الجسدية.. حتى إنهُ طلب مني تأجيل موضوع الإنجاب كي ينتهي من أبحاثه التي أخذت منه سنوات، وأحاطها بسرية تامة لم أعرف أنا نفسي شيئاً عن كنهها.. وقد كنت في واقع الأمر أحترم كثيراً شغفه بالعلم رغم أنّ الأمر كان يصل أحياناً إلى إهمال احتياجاتي كزوجة.. إلا أنني ظللتُ أقدم له كل دعم ممكن.. حتى مرت سنوات زواجنا الأولى بهدوء.. قبل أن أُفاجأ به ذات يوم وهو يخبرني أنه على أعتاب اكتشاف خطير للغاية.

لم أعقّب على كلامها.. بل تركتها تكمل.. لتقول:

- لقد توصّل زوجي إلى اختراع مذهل لا يصدق.. أن يصنع روبوتات صغيرة جداً لا تُرى بالعين المجردة.. بواسطة تكنولوجيا (النانو)*.

---

* في ستينيات القرن العشرين.. بلغ التنافس العلمي والصناعي بين (الصين) و(الاتحاد السوفييتي) ذروته.. وراحت كل دولة منهما تحاول إثبات تفوقها.. وقد فوجئ العالم بكلتا الدولتين تقيمان معارض فنية خاصة بفن (المنمنمات).. وفي=

قلت مستفهماً كوني مطلعاً على هذا النوع من العلوم:

- هذا ليس بالأمر الجديد.. فقد تمكّن العلماء من اختراع كاميرا مجهرية عالية الدقة تعوم في الشرايين وتستطيع التقاط الصور والقيام ببث مباشر من داخل جسم الإنسان*.. دعكِ من تلك الشريحة المعدنية التي تمّ ابتكارها مؤخراً، والتي تتم زراعتها في دماغ الإنسان من

=وقت متقارب نسبياً.. و(المنمنمات) هي الأشكال الفنية دقيقة الحجم التي لا تُرى بالعين المجردة.. إذ قدمت (الصين) في معرضها حبة أرز رسموا عليها خريطة العالم بكل تفاصيلها.. حتى خطوط الطول والعرض.. أما السوفييت فقدموا قطعة شطرنج بكل تفاصيلها ومحتوياتها على رأس دبوس فقط.. ليصبح الأمر أشبه بحرب المنمنمات.. فأثار ذلك اهتمام العلماء كثيراً.. وأثار خيالهم وعقولهم أيضاً.. مما أدى بهم في النهاية إلى ابتكار تكنولوجيا جديدة مذهلة.. أطلقوا عليها اسم تكنولوجيا المنمنمات أو تكنولوجيا (النانو) (Nanotechnology).. و(النانو) عبارة عن وحدة قياس صغيرة جداً جداً.. حيث يساوي (النانو) واحد من مليون من المليمتر -لاحظ الرقم جيداً- أي أنه من المستحيل تماماً رؤيته بالعين المجردة أو حتى بالمكبّرات العادية.. وقد حصل العلماء على تمويلات ضخمة لأبحاثهم من كل الهيئات الصناعية والعلمية والعسكرية.. إلى أن بدأت تكنولوجيا (النانو) تؤتي ثمارها تدريجياً منذ حقبة السبعينيات تقريباً.. فبدأ حجم الأشياء يصغر ويصغر.. ليصبح القمر الصناعي بحجم قبضة اليد وبقدرة تزيد عشرات المرات على الأقمار الصناعية القديمة.. ثم أصبح بعد ذلك من الطبيعي جداً أن تحمل في يدك هاتفاً خلوياً صغير الحجم يحوي بنكاً من المعلومات، وآلة تصوير رقمية، ومسجلاً رقمياً.. مع عشرات المميزات الأخرى التي لم تعد تخفى على أحد.. وهذا التقدم يعتبر مذهلاً بكل المقاييس لو تذكرنا أنه قد تم في سنوات قليلة.. والفضل بأكمله يعود إلى تكنولوجيا (النانو) الحديثة.

* حقيقة.. حيث قام بابتكار الكاميرا الدقيقة هذه البروفيسور (ليفينت ديجيرتيكين) (Levent Degertekin) أستاذ الهندسة الكيميائية في معهد (جورجيا) للتكنولوجيا.

خلال روبوت دقيق جداً*.. و...

ردت مدافعة:

- نعم.. لكنهم لم يتوصلوا إلى صناعة روبوتات تعوم في جسدك وتعالج أمراضك.. بينما نجح زوجي في ذلك بالفعل.. وقام بصنع مجموعة من الروبوتات عددها أقل من أصابع اليدين بقليل.. مع برمجتها على علاج أي مرض أو إصابة يتعرض لها الإنسان في ثوان قليلة ودون الحاجة إلى طبيب.. إذ تقوم بتفتيت جميع الخلايا السرطانية.. وتقضي على أي فيروس يسبب لك المرض.. وتعالج حتى كسور العظام.. بل وتشفي جسدك من أي خدش.. كل

---

* يتحدث هنا عن مشروع (الاتصال العصبي) (Neuralink) الذي قامت بابتكاره شركة (Space X) مؤخراً من خلال مؤسسها (إيلون ماسك) (Elon Mask) والذي يعتبره الكثيرون أذكى إنسان على كوكب الأرض حالياً.. فهو الرجل الذي ابتكر سيارة (تسلا) الكهربائية الشهيرة.. وبات ينافس وكالة (ناسا) نفسها في أبحاثه.. حيث تحدث (إيلون ماسك) عن ربط الأدمغة بالكمبيوتر.. من خلال شريحة صغيرة بحجم عملة معدنية يتم زراعتها في الدماغ من دون تخدير في أقل من ساعة.. وهذه الشريحة ستساعد في علاج الكثير من الأمراض العصبية.. مثل العمى والإدمان والزهايمر وفقدان الذاكرة والسمع والشلل والاكتئاب والأرق.. بل ومن الممكن للشريحة أن تعطي الأوامر للكمبيوتر المنزلي.. كما تُمكن الإنسان من الاتصال بمن يرغب عن طريق التفكير فقط.. ويمكن للشريحة أيضاً حفظ ونسخ كل ذكرياتك وتحميلها في جهاز كمبيوتر.. وتقوم أيضاً بتسجيل بيانات جسدك بالكامل.. فتستطيع أن تحذرك من نوبة قلبية مثلاً.. علماً بأنّ هذه الشريحة المذهلة ستصبح في متناول كل إنسان خلال السنوات القليلة القادمة فحسب.

هذا في سرعة رهيبة لا تتجاوز بضع ثوان.. كل ما عليك فعلهُ أن تحقن تلك الروبوتات في جسدك.. كي تعوم داخلك باحثة عن أي مرض لعلاجه.

قلت بانبهار:

- لم أتوقع أن يكون قد توصّل فعلياً إلى هذا!!.. فكل ما أعرفه عن استخدام تكنولوجيا (النانو) في العلاج بهذه الطريقة المذهلة لم يتجاوز النظريات والدراسات.. إنه إنجاز عظيم بالفعل!!.

ردت بألم:

- هكذا كان شعوري في بادئ الأمر.. فخر شديد تحول بسرعة إلى رعب حين أخبرني زوجي أنه لن يبحث عن حيوانات تجارب.. بل سيحقن نفسه بتلك الروبوتات مباشرة.. لأنها لو دخلت أي جسد.. فسيستحيل خروجها منه.. وسيعجز عن صنع روبوتات مجهرية جديدة نظراً لتكلفتها العالية جداً.. بالطبع رجوته ألا يفعل.. وأن يكتفي بتسجيل اكتشافه هذا كبراءة اختراع، ثم يخرج به إلى وسائل الإعلام.. لكنه رفض بعناد مدّعياً أنه يريد أولاً أن يكون أقوى جسدياً وأطول قامة.. فهذه الأمور

ستعتبرها الروبوتات خللاً جسدياً وستقوم بإصلاحها.. بعد أن سئمَ سخرية الناس من قصر قامته وهزاله.. وسئمَ من النظرات التي تلاحقه أينما ذهب.. وإذا نجح.. سيعلن اكتشافه هذا للعالم ساعياً إلى المجد العلمي والثراء.. خاصة بعدما يلاحظ الجميع التغييرات التي ستطرأ على بنيته الجسدية.

شعرت بتوتر يسري في أعماقي، وأنا أتساءل عن نتائج التجربة التي جعلت الزوجة تزورني في المستشفى.. فسكتُّ منتظراً منها أن تستطرد.. و:

- ويبدو أنه لم يكن ينتظر رأيي أصلاً.. بل أبلغني بذلك من باب العلم بالشيء لا أكثر.. فقد أخرج من جيبه علبة صغيرة تحوي حقنة يسبح فيها سائل شفاف يفترض أن تلك الروبوتات تسبح فيه.. وأمام نظراتي المذعورة.. حقنَ ذراعه اليسرى.. ليجلس على أقرب كرسي وهو يؤكد بحزم أنّ الروبوتات باتت تسبح في جسده الآن.. وسوف يضع نفسه تحت الملاحظة الدقيقة في الأيام القادمة.. ليكتشف نتائج اكتشافه هذا.

سألتُها بقلق:

- هل أصيب بأية أضرار؟!.

هزت رأسها نفياً وهي تقول:

- بالعكس.. لقد حدث تحسن كبير في صحته.. فقد اختفت تماماً آلام الظهر التي ظل يعانيها لسنوات جراء جلوسه الطويل أمام شاشة الكمبيوتر.. وبدأ يشعر أنّ بنيته الجسمانية صارت أقوى مما كانت عليه بمرتين على الأقل.. ورأيته يحمل أوزاناً لم يكن يحلم بحملها في السابق.. كان هذا قبل أن يتطور الأمر.. ويزداد طوله وتبدأ عضلاته بالبروز وتغطي جسده!!.. حتى اضطر إلى أخذ إجازة طويلة من عمله.. ليعرف إلى أين ستتجه الأمور.. كل هذا في غضون أيام قليلة.

كنت أصدق كل حرف من كلامها رغم غرابته.. فبالإضافة إلى مكانتها كطبيبة.. كانت تتحدث بتفاصيل علمية دقيقة لا يعرفها الكثيرون.. لذا صحت مستنكراً:

- يا إلهي!.. هذا غير معقول.

ردّت وهي تتنهد:

- بل هو معقول جداً.. فكل هذا كان متوقعاً كما أكد

زوجي.. لكن.. الأمور لم تتوقف عند هذا الحد.. المشكلة أنّ الروبوتات كانت تحمل الذكاء الصناعي* يا دكتور.. أي أنها قادرة على التطور إلى درجة لم يضعها زوجي في الحسبان.. إذ بدأت تتصرف بطريقة أذكى من المتوقع.. فبعد أكثر من شهر.. وبعد انعزال زوجي الكامل في البيت وبقائه معظم الوقت في مكتبه دون السماح لي بطرح أية أسئلة عن تجربته.. حدث تطور ملفت ومقلق جداً.. عندما خرجتُ من غرفتي ذات يوم، وقد كنت بكامل أناقتي استعداداً لزيارة إحدى صديقاتي.. حين سمعت صوتاً في المطبخ.. فعلمت أنّ زوجي هناك يعد شيئاً ليأكله كوننا لا نمتلك خادمة.. لأتّجه إليه مودعة قبل الخروج.. وأجدهُ يدير ظهره لي وهو يقطع شرائح الخيار لوجبته.. وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة.. تحدث فجأة عن إعجابه بفستاني وأناقتي.. وقد كانت هذه صدمة مروعة!!.

قلت بذعر:

- يا إلهي.. هل.. هل...

---

* (الذكاء الصناعي) (Artificial Intelligence) هو سلوك وخصائص معينة تتسم بها برامج الكمبيوتر وتجعلها تحاكي القدرات الذهنية البشرية.. ومن أهم خواصها القدرة على التعلم والاستنتاج ورد الفعل على أوضاع لم تبرمج في الكمبيوتر أصلاً.

لم أكملْ العبارة.. بل أكملتْها هي:

- نعم.. لقد نبتت له عين في الخلف!!.. عين صغيرة جداً بين بصيلات شعره.. لا يمكن أن تراها إلا إذا كنتَ تعرف مكانها.. فأصبح يرى ما هو أمامه.. وما هو خلفه بنفس الوقت.

بدت لي الصورة هزلية ومضحكة.. حين تذكرت أنّ هذا الرجل يرى من قفاه!!.. لكن قوة المفاجأة جعلتني آخذ كلامها بجدية بالغة.. لتقول:

- حين نبّهت زوجي إلى ذلك بذعر.. وقف أمامي صامتاً للحظة.. ثم حسم أمره وقرر مصارحتي.. ليقول إنه أخفى عني هذا التطور في جسده كي لا يخيفني.. وقد نسيَ حذره عندما رأى فستاني من خلال عينه الخلفية.. دكتور.. أعترف أنها المرة الأولى التي بتُّ أخشى فيها زوجي بعد أن بدا لي كالمسخ.. خاصة حين جعلني أرى تلك العين.. ويبدو أنّ هذا الاكتشاف جعله يعترف بأشياء أخرى أخفاها عني.. فقد أمسك بالسكين التي كان يستخدمها.. وطعن بها نفسه بكل قوته وسط نظراتي المذعورة.. لكن.. ما لبث الجرح أن تلاشى تدريجياً.. لتدفع بطنه السكين

إلى الخارج وتسقط على الأرض.. لم يكن هذا كل شيء.. بل أخبرني أيضاً أنه أصبح قادراً على البقاء في الماء ساعات طويلة دون الحاجة إلى الهواء.. كما أصبح جسده غير قابل للاحتراق بعد أن طورت الروبوتات من جلده وأنسجته.. وسألني إن كنت أريد دليلاً على ذلك.. إلا أنني رفضت بالطبع.. فما رأيته كان كافياً.

قلت بذهول:

- هذا لا يصدق.. لقد تحوّل إلى رجل خارق!!.. (سوبرمان) حقيقي.. لكن.. مهلاً.. هل أنتِ جادة بكل كلامك؟!.. أم أنّ هناك خدعة ما؟!.

نظرت إلى عيني مباشرة وبضراعة لتقول:

- أرجوك أن تتذكر أنني طبيبة أيضاً، وإنسانة جادة ومحترمة لن أضيع وقتك ووقتي بأكاذيب.. ولا يوجد من أتحدث معه بقصة كهذه سواك.. ففي البداية فكرت أن أخبر أقرب صديقاتي بهذا السر.. أو حتى إحدى شقيقاتي.. لكني صرفت النظر عن ذلك.. أحتاج أن يستمع إلى قصتي شخص غريب لا يعرفني.. ويكون على درجة من الثقافة أيضاً.. لذا كل ما أطلبه منك هو الاستماع وربما النصح يا دكتور.

سكتُّ محترماً كلامها.. لتكمل هي بألم:

- لقد أصبح زوجي رجلاً خارقاً بالفعل كما قلت للتو.. خاصة حين أقسم لي أنه خرج أثناء نومي إلى منطقة نائية بعيداً عن المتطفلين.. وهناك أطلق النار على نفسه بمسدس حصل عليه بطريقة ما.. لكنَّ الرصاصة ارتدّت عنه.. فسألته برعب عما سيحدث بعد ذلك.. وإلى أي مدى بالضبط سيتطور جسده.. ليهز كتفيه كناية عن جهله.. مؤكداً لي أنّ عقله تطور كثيراً أيضاً.

وضعتُ راحتيْ يديَّ على وجهي، وقد شعرت بقشعريرة باردة.. زادت حدتها حين قالت:

- لم يكن هذا كل شيء.. فقد اعترف أيضاً أنه ارتكب فعلاً شنيعاً قبلها بيومين.. أثناء وجودي في مناوبتي في المستشفى.. حين تشاجر مع شاب كان يقود سيارته بتهور من أجل معاكسة إحدى الفتيات.. مما أثار نخوة زوجي الذي استوقف الشاب على حافة الطريق.. حيث نزل الأخير من سيارته مُستعداً للشجار.. ليلتحم معه زوجي ويوجّه إليه أكثر من ضربة.. و.. يبدو أنّ زوجي لم يكن

يدرك قدراته بعد.. إذ.. إذ قتل ذلك الشاب للأسف من دون قصد!!.

لم أبدِ أيَّ ردة فعل.. لقد كانت الصدمة أقوى من أية كلمة.. فسكتُّ طويلاً.. وقد طرأ في ذهني ذلك التصريح الخطير لأحد المسؤولين في المخابرات الأمريكية.. حين ذكر أنّ (الصين) أجرت اختبارات غير أخلاقية لتغيير جنودها بيولوجياً.. مما يجعل كل جندي يمتلك طاقات وقوى خارقة بشكل أو بآخر، تجعله قادراً على تغيير دفة أية معركة لصالحه*.

قطعت الفتاة حبل أفكاري وهي تقول:

- ما أثار قلقي أكثر.. جمود زوجي وتصرفه الهادئ رغم أنه ارتكب جريمة قتل.. حتى إنني سألته صراحة عن ذلك.. ليؤكد لي أنّ القلق والتوتر والخوف كلها عوامل نفسية سلبية تتعلق بكيمياء المخ.. أي أنّ الروبوتات تعاملت معها أيضاً وكأنها مرض.. فعالجَتها كما تفعل الأدوية النفسية ومضادات الاكتئاب.. الفارق هنا أنّ الفعالية أكبر بكثير.

* تصريح حقيقي لكننا لا نعرف مدى صحته.

سألتُها مستغرباً:

- وهل توصلتْ تحريات الشرطة إليه؟!.

ردت بغموض:

- لن يصلوا إليه مهما فعلوا.. إنني على يقين من ذلك.. لأنّ جسد زوجي تطور أكثر يا دكتور.. وإلى مدى جديد لم أتوقعه إطلاقاً.. لقد أصبح خفيّاً لا يُرى!!.

كان هذا أكبر بكثير من كل توقعاتي.. وقبل أن أرد بكلمة أو أبدي استغرابي.. أخرجت الفتاة هاتفها من حقيبتها وبحثت فيه قليلاً.. ثم وضعتهُ أمامي.. لأنظر مبهوراً إلى الشاشة.. وأجد رسالة من زوجها أرسلها منذ بضعة أسابيع.. يخبرها فيها أنه أصبح خفيّاً بالفعل.. ولا يعرف كيف سيعود إلى وضعه السابق.. ليتحدث بعد ذلك عن حبه لها.. وأنها أجمل شيء حدث له في حياته.. لذا لن يجعلها تعيش هذه الحياة القلقة معه.. فقد قرر الاختفاء من حياتها إلى الأبد.. إلا أنه سيعرف كيف يحميها إذا تعرضت للأذى.. أمّا أقسى ما قاله.. حين ذكر أنه يعاني الآن من التشوهات الجينية.. وقد عانى قبلها من التشوهات الحياتية.. أي أنّ حياته بأكملها عبارة عن تشوهات

ومعاناة.. ليختتم رسالته بهذه الكلمات المؤلمة:

((لن نلتقِي مرة أخرى يا حبيبتي.. سوف ينساني الجميع.. كل أفعالي ستتحول إلى ذكريات.. ستذبل أحزاني، وسيذبل تأثيري على من يحبّني.. حتى أنتِ.. قد أظهر فجأة في ذاكرتكِ بين الحين والآخر.. وقد يعثر أحد أفراد عائلتي على أشياء تخصني، ويبتسم بحزن وهو يتساءل عن مكاني.. لكنه في النهاية سينسى.. مؤلم حين أتذكر أنّ الحياة ستستمر بعد رحيلي.. مؤلم جداً.. في حين أنّ حياتي متوقفة في ركن مخفي لا يعرفه أحد)).

سكتُّ طويلاً وأنا أتخيل الأمر.. هذا مذهل!.. ويفوق كل ما يتخيله إنسان.. قد تبدو الصورة هزلية حين نتحدث عن رجل يمتلك مميزات عديدة عن باقي البشر.. ولا يختلف كثيراً عن الأبطال الخارقين الذين تملأ صورهم المجلات الهزلية ونراهم على شاشات السينما.. لكني أرى كل هذا واقعاً هنا.. وإن كنت لم ألتقِ شخصياً بهذا الرجل.. ناهيكم عن قدرته على الاختفاء.. ومن دون عباءة الإخفاء التي كانت دوماً محوراً للروايات وقصص الخيال العلمي.. إنني أدركُ بأنّ العلماء اقتربوا كثيراً من صناعة عباءة الإخفاء هذه.. بل وقاموا بذلك بالفعل على

نطاق محدود كما قرأت في إحدى المقالات العلمية*.. إلا أنّ ما حدث لزوجها أكثر غرابة بكل تأكيد!!.

حاولتُ طرح كل تلك الأفكار جانباً لأسيطر على أعصابي.. ثم سألتها باهتمام:

- لكني لا أفهم.. تقولين أنّ ذكاءه تطوّر كثيراً.. لماذا لم يسعفه هذا لإيجاد وسيلة كي يُخرج تلك الروبوتات من جسده؟!.

ردت بهدوء:

---

* حقيقة.. حيث نجح فريق من العلماء منذ سنوات قليلة في مختبرات (بيركلي) للعلوم باختراع أول عباءة إخفاء.. وهي عباءة رقيقة جداً لا يتعدى سمكها (80 نانومتر) من الممكن لفها على أي جسم ثلاثي الأبعاد وإخفائه عن الأنظار تماماً.. بعد أن تم ترصيع العباءة بآلاف القطع الذهبية متناهية الصغر والتي تتحكم بمسار الضوء عندما يسقط على العباءة.. فيتم طيّه حول الجسم المراد اخفائه.. وبالتالي تأخذ العباءة شكلاً مطابقاً للخلفية الموجودة وراء الجسم وتخلق وهماً بعدم وجوده.. علماً بأن استخدام العباءة ليس مقتصراً على الإخفاء فقط.. بل من الممكن استخدامها لتغيير شكل الجسم كما أوضح العالم (زيانج تشانغ) (Xiang Zhang).. فتقوم على سبيل المثال بإخفاء الكرش ليظهر البطن للناس وكأنه يحتوي على العضلات.. إلا أن العباءة تحوي بعض العيوب.. أهمها حجمها الكبير الذي يبلغ 3 أضعاف حجم الجسم البشري على الأقل.. كما أن وضعها على الجسم أثناء حركته لن يأتي بنتيجة.. إذ يتطلب من مرتديها السكون التام وقت ارتدائها.. لأن عملية تطابق العباءة مع الخلفية تحتاج بعض الوقت.. لكن.. من المؤكد أن هذه البداية رائعة كما يرى العلماء.. وتعد فتحاً جديداً لتحقيق أحد أحلام البشرية.. وهو الحصول على وسيلة فعالة للاختفاء.

- لأنّ الروبوتات تمتلك الذكاء الصناعي كما ذكرتُ لك.. أي أنّ ذكاءها كان يتطور أيضاً.. وهي تتعامل مع زوجي على أنه تحت حمايتها.. فلا يمكن أن تساهم في جعله أذكى منها.

سألتها مرة أخرى محاولاً العثور على أية ثغرة في قصتها:

- ماذا عن مشاعر الحزن والحب؟!.. فهي مجرد تفاعلات كيميائية تحدث في المخ.. ألم تتعامل معها الروبوتات وتلغيها من عقله؟!.

هزت رأسها نفياً، وهي تقول:

- لقد طرحتُ عليه هذا السؤال قبل أن يختفي من حياتي.. فقال أنّ غياب مشاعر الحب والحزن ستلغي إنسانيته.. ويبدو أنّ الروبوتات لا تريد تحويله إلى آلة بشرية.. لكن من يدري؟!.. قد يحدث هذا في المستقبل.

لم أجد ما أقوله أمام إجاباتها المقنعة.. فسألتها:

- ألم يتواصل معكِ بعد هذه الرسالة الهاتفية؟!.

ردت بحزن:

- أبداً.. كما أنّ رجال الشرطة توصلوا إلى زوجي بعد ارتكابه جريمة القتل.. وباتوا يبحثون عنه منذ ذلك الحين.. وقد حققوا معي أكثر من مرة.. لكني ظللت أنكر صلتي بكل شيء.. وأؤكد لهم أنه اختفى من حياتي.. لأنّ قصتي أقرب إلى الخيال، ولن يأخذوا بها.. إلا إذا سلّم زوجي نفسه وأظهرَ لهم قدراته أمام أعينهم.. ولا أظن أنه سيفعل.. وبالطبع فإنّ جميع أفراد عائلتي -وعائلته أيضاً- يقفون بجانبي الآن.. كونهم يظنون أنّ زوجي ارتكب جريمته ورحل عني إلى الأبد.. والجميع يعزو الأمر إلى العقد النفسية الكثيرة التي عاناها في حياته، والتي جعلته إنساناً غير مستقر قد ينفجر في أي وقت ويرتكب حماقة ما.. وإن ظلوا يتساءلون باستغراب عن مقدرته على ارتكاب جريمة قتل -من دون سلاح- بحق إنسان يفوقه كثيراً في القوة الجسدية.. فلا أحد منهم يعرف التغييرات التي طرأت على زوجي منذ قيامه بتلك التجربة اللعينة.

سألتُها بتوتر:

- سيبدو كلامي مضحكاً.. لكن.. لو كانت قصتك حقيقية.. فهذا يعني أنّ زوجك قد يكون موجوداً معنا الآن.

قالت مؤكدة:

- لا أستبعد ذلك.. وأصدقك القول.. أنا أشعر أحياناً أنّ هناك من يراقبني.. لا تسألني كيف.. ربما هو شعور الأنثى الداخلي.

شعرتُ بخوف حقيقي.. لكني تمالكتُ نفسي وأنا أبذل جهداً خارقاً كي لا ألتفت محاولاً الحفاظ على وقاري.. ثم سألتها بتوجس:

- قصتكِ صعبة التصديق.. وحتى لو صدقتك.. فما الذي يمكنني فعله؟!.. لقد أدخلتني إلى عالم آخر بعيد تماماً عن مجالي.

كان ردها بمثابة القنبلة.. حين قالت آخر ما توقعته:

- على الأقل تستطيع أن تخبرني إن كان عليّ الاحتفاظ بالجنين أم لا!!.

قلت بذهول:

- يا إلهي.. أنتِ حامل؟!.

هزت رأسها إيجاباً بأسى، وهي تخبرني أنها حامل في شهرها الثاني.. لأرد مصدوماً:

- هـذا يعنـي أنّ الطفـل يحمـل جينـات زوجـك.. جيناتـه المعدلة.

ردت بحزم:

- نعم.. وقد حاولتُ التخلص من الجنين.. أنت تعرف أنّ عمليات الإجهاض غير قانونية.. لذا اضطررت للاستعانة بزميلة لي كي يتم الأمر بالسر، ومن دون أن أخبرها بالسبب الحقيقي وراء رغبتي هذه.. إلا أنّ عملية الإجهاض فشلت.. مما يؤكد كلامك.. فالجنين يحمل جينات زوجي المعدّلة بالفعل.. والتي تحميه من أية محاولات خارجية لإنهاء حياته.

سألتها بسرعة:

- مهلاً.. من أيضاً يعلم بأمر حملك؟!.

قالت بيأس:

- أنت فقط.. وربما زوجي أيضاً إذا كان يراقبني الآن.. أما زميلتي فلا تعرف شيئاً عن الأمر.. وتظن أنّ عملية الإجهاض نجحت.. إنني في ورطة.. ولا أعرف ما سأقوله للناس حين يبدأ بطني بالانتفاخ وأصل إلى مرحلة الولادة؟!.. حيث

سيكتشف الجميع أنّ الجنين عبارة عن مسخ.. كحال زوجي تماماً.. لذا أرى الحل الوحيد المتاح.. أن أموت قبل أن يولَد.. لأنه سيموت حينها هو أيضاً بطبيعة الحال بعد أن أكون تحت التراب.. أما إذا أخرجت الجنين إلى الحياة.. فلن يكون هناك طريق للعودة بالنسبة له.. وسيصبح حيوان تجارب في المختبرات.. أما الآن فأنا المتحكم الأول في حياته كما تعلم.. وموتي سيعني موته.

سألتُها بقلق:

- وماذا عنكِ أنت؟!.. هل أنت مستعدة للموت؟!.. ليس الأمر سهلاً.

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول:

- ليس الأمر سهلاً بالفعل.. وقد استغرق وقتاً من تفكيري.. لكني لا أجد حلاً آخر.

قلت مُفكراً:

- إلا إذا تواصل معكِ زوجك.. وعثر على الحل.. ربما سيأخذك أنتِ مع الجنين إلى مكان آخر بعيداً عن الأنظار.

مطّت شفتيها وهي تؤكد:

- لن يفعل ذلك.. فزوجي يحبني كثيراً.. ولن يقبل أن أعيش هكذا بعيدة عن عائلتي.. إنه يعرف مدى تعلقي الشديد بوالديّ وبأشقائي.

قلت بسرعة:

- هناك حل آخر.. ماذا عن....

لم تجعلني أكمل.. بل قاطعتني بحنق وكأنها تعرف سؤالي:

- لا.. لن أقبل أن ألد الطفل ثم يأخذه زوجي بعيداً عني، إن كان هذا ما تريد اقتراحه.. أنا لم أصبح أمّاً بعد.. لكني أدرك أنّ مشاعر الأمومة ستجعلني أندم إذا أقدمت على هذه الخطوة.. وسأفتقد طفلي كثيراً حينها.

عقدتُ حاجبيَّ وقد وضعتُ قبضتي تحت ذقني محاولاً إيجاد حل.. لكنها قطعت تفكيري وهي تؤكد:

- كنت أعرف استحالة العثور على حل لمشكلتي.. لكني جئتُ إلى هنا رغم ذلك كي لا ألوم نفسي فيما بعد على عدم الإقدام على هذه الخطوة.. فعلى الأقل الآن سأقتل نفسي بضمير مستريح، مدركة أنني أنقذ طفلي من حياة

قاسية جداً عليه.. كالأم التي تتخلص من جنينها حين تكتشف إعاقته الجسدية.. الفارق هنا أنّ التخلص من جنيني يتطلب موتي أيضاً.

لم أجد ما أرد به.. فنهضَتْ من مكانها.. ثم نظرت إليّ لتقول مودّعة:

- على كل حال.. أشكرك يا دكتور لاستماعك إليّ.. على الأرجح لن تراني مرة أخرى.. لكن دعني أؤكد لك أنّ كل ما قلته حقيقي، ولم أكذب بكلمة واحدة.

أدارت لي ظهرها لترحل وهي تمسح دمعة خرجت من عينها.. في حين ظللت أنظر إلى خطواتها المبتعدة إلى أن خرجت من مكتبي.. لأتذكر حقيقة مروعة فاتتها على الأرجح.. فزوجها قد يعيش طويلاً.. طويلاً جداً إذا كانت الروبوتات ستحميه من كل الأمراض وستتعامل مع الشيخوخة نفسها وكأنها خلل جيني ستقوم بإصلاحه.

كنت أفكر بكل هذا.. إلى أن أُغلِقَ باب مكتبي فجأة من تلقاء نفسه!!.. وهو ما لم يحدث من قبل.. مما جعلني أقف في مكاني مشدوهاً.. وأتساءل بقلق.. هل كان زوجها موجوداً معنا؟!.. هل استمع إلى كلامنا؟!.. أم أنها مجرد صدفة؟!..

لا أعلم.. يظل هذا السؤال مطروحاً، ولا أظن أنني سأمتلك إجابة عليه.. إلا إذا استجدّ شيء ما وزارتني الفتاة مرة أخرى.. أو إذا زارني زوجها يوماً وأفصح عن نفسه.

سيكون المسكين وحيداً جداً.. وسيعيش طويلاً كما هو واضح.. ولا أعرف إن كانت الروبوتات ستحميه من مشاعر الوحدة القاسية.. وإلا سيكون معرضاً للانهيار.. إنه أشبه بقطعة من الفخار الموجودة على حافة رف، والتي قد تسقط في أية لحظة.. المشكلة أنّ الوحدة خياره الوحيد.. وإلا فسيتحول إلى فأر تجارب إذا علمت السلطات بوجوده.. ولا أظنه سيقبل بهذا.

لقد عاش زوجها مخفياً لسنوات طويلة.. قبل أن يصبح مخفياً!!.. ولا أعرف الآن كيف سيستغل قدراته هذه.. إن كان سيتصرف مثل الأبطال الخارقين.. فيحارب الشر ويقضي على الجريمة.. ليصبح واحداً من الشخصيات الخارقة الكثيرة التي جسَّدتها القصص والأفلام عشرات المرات.

لا أعلم إن كان من السخف أن أتحدث بهذه الطريقة.. لكنّي لا أجد طريقاً آخر لمن امتلك فجأة قوى خارقة كهذه.. سوى أن يصبح مدافعاً عن العدالة.. أو.. ربما سيختار الانزواء في

عالمه الذاتي الخفي، دون أن يدرك أحد أنّ رجلاً بقدرات كهذه موجود بيننا وقد يفصح عن وجوده يوماً.. جميع الخيارات متاحة له بعد أن كان ينتظر إنصاف الحياة.. فأنصفته بالفعل.. ولكن إلى نصفين!!.

عموماً.. دائماً حياة العباقرة غريبة وتثير الجدل.. ولا أفهم لماذا تذكرت (كورت جودل) (Kurt Gödel).. عالم الرياضيات العبقري الذي كان يعاني فوبيا الموت بالسم.. فكان لا يأكل أبداً إلا من يد زوجته التي مرضت ذات يوم.. واضطرت للبقاء في المستشفى لعدة شهور.. ليتوقف عن الأكل طوال هذه المدة.. ففقد الكثير من وزنه.. إلى أن توفيَ بعد أن وصل وزنه إلى 29 كيلوجراماً فقط*.

لقد كنت في مراهقتي أتمنى أن أكون خفيّاً.. لكن الآن.. وبعد هذه القصة.. شعرتُ بالفعل بأهمية أن أكون مرئيّاً.. مع شعوري العميق بقبول هيئتي الجسدية وملامحي وكل ما يتعلق بي.. فهذا أفضل بكثير من أن أكون متحوّلاً جينياً كهذا الرجل، الذي لو قررَت زوجته الاحتفاظ بجنينها.. فسيبدأ جيل مخيف من البشر بالظهور.. جيل جديد.

---

* حقيقة.

النهاية

وبعد.. ها قد وصلنا إلى ختام هذا الجزء.. والواقع أنني لم أعد أعرف أي القصص كان لها التأثير الأسوأ على حياتي.. فكل منها أخذ جزءاً مني.. لأنني أبذل كل جهدي وأحاول أن أحل مشاكل الجميع وأنسى مشاكلي.. لأصبح كعامل البناء الذي يشيد البيوت الفخمة.. وينسى بيته المتهالك.

إنني أخبر الجميع باستمرار أنّ الحياة بسيطة.. وأنّ الإنسان هو المعقد.. وأتحدث بعقلانية مع من يرغب في الانتحار أو يتمنى الموت.. فأطلب منه أن يغلق أنفه ويمنع نفسه من التنفس.. عندها سينسى مشاكله ويتذكر أنّ التنفس أهم ما يملك.. وأنّ كل رغباته في الموت غير جادة.

لكن.. حين أختلي بنفسي.. أدركُ أنّ الأمور أعقد وأصعب من ذلك بكثير.. وأنني لن أقول هذا الكلام لنفسي حين أواجه مشكلة ما.. لأقرر الصمت وعدم إطلاق النصائح لأحد.. قبل أن يطلب أحدهم نصيحة نفسية جديدة.. فأجد نفسي مضطراً أن أعيد نفس الكلام.. وهذا التناقض الذي أشعر به لا يضايقني

كثيراً.. لأنّ جميع البشر يحملون كمّاً من التناقض والعيوب.. وأقولها صراحة.. أنا لم ألتقِ أبداً بمن أبهرني بتفاصيل حياته.. فدائماً ما ننبهر بالبعيد.

على كل حال.. لقد حاولت في هذا الجزء التنويع -كما هي العادة- كي لا أشعركم بالملل.. فكانت هناك قصتان من عالم الماورائيات (الحفل) و(رؤى).. وقصة رعب (العابر).. مع قصة من الخيال العلمي (جيل جديد).. وأخيراً وليس آخراً.. قصتان اجتماعيتان (مشكلة سخيفة جداً) و(نافذة غرفتي).. آملاً أن يكون التنويع قد أتى بثماره هذه المرة أيضاً.

هل ستكون هناك أجزاء أخرى قادمة؟!.. بالطبع.. فمستشفى الطب النفسي عالم في حد ذاته.. تسمع وترى فيه من العجائب المختلفة.. كما أنّ عزلتي الدائمة تجعلني ثرثاراً على الورق.. وهي أجمل أنواع الثرثرة.. فللعزلة قيمة حقيقية لطالما عشقتُها.. تجعلك تكتشف نفسك أكثر كل يوم.. وتتعلم أكثر أيضاً إذا قمت باستغلالها بصورة صحيحة.. خاصة حين أتذكر كيف تسوء أخلاق الناس في الزحام.. وما تجربة (الحوض

الأخلاقي)* إلاّ دليل مُجسَّد على صحة كلامي.

---

* تجربة (الحوض الأخلاقي) (Behavioral Sink) تجربة شهيرة قام بها عالم السلوكيات الأمريكي (جون كالهون) (John Calhoun) في منتصف القرن الماضي.. حين جلب 8 فئران تتمتع بصحة جيدة، ووضعها في مكعب يتميز بتصميم مميز وببيئة ملائمة مع الكثير من الطعام والماء.. وأطلق على المكعب اسم (الكون 25) بغرض فهم تأثير الكثافة السكانية على السلوكيات.. ففي الأسابيع الأولى من التجربة.. بدت الفئران سعيدة جداً وهي تأكل وتشرب وتتزاوج في هذه البيئة المثالية.. من دون أن تعلم أنها بهذه الطريقة تقوم بتدمير عالمها تدريجياً في هذا المكعب.. فقد بدأت بالتكاثر يوماً بعد يوم إلى أن بدأ المكعب يزدحم بها.. حينها لاحظ (جون كالهون) تغيُّراً كبيراً في سلوكيات الفئران.. إذ ظهر العنف العشوائي بينها.. وبدأت بعض الأمهات بإيذاء أطفالهن وأحياناً بقتلهم.. كما انكسرت الروابط الاجتماعية بينهم.. وانخفض معدل الحمل.. وأصبح عدد منهم يعيش في عزلة عن البقية دون افتعال أية مشاكل.. فتوقفوا حتى عن التزاوج.. ثم بدأت الأمراض بالانتشار.. وازدادت الفئران كسلاً في نفس الوقت لعدم حاجتها إلى الحركة.. خاصة مع توفر الطعام والماء بكميات وافرة.. لتبدأ كثافتهم السكانية بالانخفاض بسبب الأمراض والاقتتال وانخفاض معدل التزاوج -رغم أن الفئران كائنات اجتماعية بطبعها- مما أدى إلى فشل تعدادهم في إعادة نفسه.. ولم ينجُ منهم سوى الذين اختاروا العزلة.. إلا أن الفئران الناجية لم تستطع العودة إلى سلوكياتها الطبيعية.. لأنها لم تنمُ في مجتمع طبيعي.. وقد قال (جون كالهون) في نهاية تجربته -وبعد حوالي 4 سنوات من بدئها- أن هذا سيكون حال البشر بالضبط حين يتكاثرون بلا حساب كما فعلت الفئران.. وبعيداً عن هذه التجربة.. ربما يتساءل البعض عن السبب الذي يتم فيه استخدام الفئران دوماً في التجارب.. فالواقع أن هناك عدة أسباب.. منها حجم الفئران الصغير.. بحيث يمكن الحفاظ عليها في أماكن صغيرة وحمايتها بشكل أكبر مقارنة مع بقية الحيوانات.. إضافة إلى جودتها في التكيف مع أي محيط جديد.. كما أنها تتكاثر بسرعة وتعيش عمراً قصيراً بنفس الوقت (سنتين إلى 3 سنوات فقط) مما مكّن العلماء من ملاحظة العديد من الأجيال في فترة قصيرة نسبياً.. كما أن تكلفة شراء الفئران قليلة من قبل التجار المختصين في بيعها لمعاهد الأبحاث.. ولا ننسى أحد أهم الأسباب.. أن خصائصها الجينية والبيولوجية تشبه بشكل كبير خصائص البشر.. لهذه الأسباب مجتمعة.. نجد أن الفئران تشكل حوالي 95% من حيوانات المختبر كما يشير المختصون.

لذا.. سأترككم الآن مودِّعاً.. على أمل اللقاء بكم في جزء قادم من هذه السلسلة التي بت أترقب كتابتها.. كما تترقبون قراءتها.. متى سيكون الجزء القادم؟!.. آمل ألا يتأخر كثيراً.. وأن تسمح الظروف بسرده لكم.. ولكن.. لنترك هذا للزمن.



إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المُعقَّد (2019)
22) حالات نادرة 5 (2020)
23) جرعة زائدة (2020)
24) حالات نادرة 6 (2021)

للتواصل مع المؤلف

Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

Instagram : **abdul_alrifaee**

Snapchat : **alrifaee**

Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**